أحمد سلمان

من البذرة إلى الثمرة

صفحات من تاريخ التشيّع في تونس

تونس 2020

الكتاب: من البذرة إلى الثمرة - صفحات من تاريخ التشيّع في تونس
المؤلف: أحمد سلمان
النوع: دراسة
الناشر: ديار للنشر والتوزيع
8 نهج قفصة، المنزه الخامس، أريانة - الجمهورية التونسية
الهاتف: 25119701
البريد الإلكتروني: dyaredition@gmail.com
الموقع الإلكتروني: http://www.diyar-edition.com
تصميم الغلاف: رامي شعبو
ر.د.م.ك: 978-9938-928-68-6
الطبعة الأولى 2020
إصدار بالتعاون مع مركز أهل البيت (ع) للبحوث والدراسات
المطبعة: المغاربية للنشر والتوزيع



مقدمة

ليس العجب من فتح ملفّ تاريخ التشيّع في تونس والغوص في أحداث الماضي السحيق، بل العجب كلّ العجب من الحساسيّة المفرطة من فتح هذا الملف وكأنّنا أمام من يريد حذف وتحريف وتزييف حقبة طويلة من تاريخ تونس الثريّ!

نعم، قد يتفهّم الإنسان وجود هذه الحساسيّة في العهد السابق الذي انقضى وانقشع ظلامه، إذ إنّ هناك من قام بخلط الأوراق بالربط بين البحث التاريخيّ الصرف وبين الصراعات السياسيّة الإقليميّة التي كانت تعصف بالأمّة العربيّة والإسلاميّة في ذلك الوقت فكانت الجناية الكبرى على هذا الملف الذي ظلّ يعانق غبار الأدراج.

لكن الذي لا يمكن أن أتفهّمه هو لماذا الخوف من محاولة فتح الملف اليوم بعد أن انجلى الليل وانكسرت القيود، فنحن أمام:

تونس الحريّة...

تونس حريّة المعتقد...

تونس حريّة الضمير...

تونس حريّة ممارسة الشعائر الدينيّة...

ومقتضى هذه الحالة أن لا نخشى من البحث في أدراج التاريخ عن كلّ ما نُسي أو تناساه البعض جهلا أو عمدا، فالتاريخ جزء لا يتجزّأ من هويّة الشعب، بل هو عامل من عوامل حركة الأمم وتقدّمها نحو الأمام.

ومن هذا المنطلق حاولت في هذه المسوّدة تقليب بعض صفحات تاريخ تونس المجهول وتقديمه للقارئ اللبيب -الذي يتطلّع لمعرفة خباياه- لاسيما وأنّ ملفّ "التشيّع" لم يعد خافٍ عن أيّ أحدٍ فهو حاضر في الأصعدة المختلفة في العالم، وما التاريخ إلّا واحد منها ولذلك سنقوم بفتح هذا الملف فيه وتقليب صفحاته المهترئة.

أحمد سلمان

مالكيّة تونس: حقيقة أم خيال؟!

لعلّ أهمّ عائق يذكره بعضهم لمنع فتح مثل هذه الملفات هو "مالكيّة تونس" إذ إنّه قد ضرب شكل من أشكال القداسة حول تمذهب تونس بالمذهب المالكي، واعتبر هذا الأمر من حقول الألغام التي يمنع الدخول فيها منعا باتّا، فكلّ إثارة من شأنها زعزعة هذا الانتماء والتشكيك في أساسه هي تجاوز للخطوط الحمراء التي سطّرت من قديم الزمان.

في هذا الفصل سنسلّط الضوء على هذه القضيّة التاريخيّة الحسّاسة ونتناولها من عدّة جهات:

التنوّع الديني في تونس:

كانت تونس ولازالت تمثّل لوحة فسيفسائيّة بديعة تنافس أجمل اللوحات التي شكّلها أعظم الفنانين عبر العصور، فقد شهدت تنوّعا دينيّا منقطع النظير إذ كانت ولازالت ميدانا لاجتماع كثير من الأديان وما المعابد المختلفة التي تملأ أرجاء الجمهوريّة من بنزرت إلى تطاوين إلّا شاهد صدق على هذا التنوّع.

وبعد دخول الإسلام اندثر كثير من الأديان لاسيما الوثنيّة منها، وبقيت الديانات السماويّة حاضرة في البلاد بحيث مثّل أتباعها جزءا لا يتجزّأ من الجسد التونسي الأصيل:

فلليهود حضور في شتّى مناطق البلاد التونسيّة بحيث لا تخلو مدينة من المدن من "حارة" لليهود حيث تعايشوا مع إخوانهم المسلمين وتآلفوا معهم، بل كانوا يمثّلون عنصرا اقتصاديّا هامّا لكون غالبيّتهم قد امتهنت تجارة الذهب بحيث تسمّت بعض الأسواق بهم، بل الأعظم من كلّ ما تقدّم أنّ التراب التونسي قد حوى بعض مقدّساتهم وهو "معبد الغريبة" بجزيرة جربة الذي يُحجّ له في كلّ عام.

وللمسيحيّين أيضا حضور كبير في تونس له جذور تاريخيّة ضاربة في العمق يشهد على ذلك قدم الكنائس التي تملأ العاصمة ومدن تونس والتي يقدّر عمر بعضها بأكثر من ألف عام، بل لازال الطرف المسيحي حاضرا بقوّة في شتى المجالات المختلفة ممّا يؤكّد أصالة هذا العضو في الجسد التونسي.

هذه مجرّد شواهد على التنوّع الديني في تونس يمكن لأيّ إنسان ملاحظتها بيسر وسهولة وإلّا فإنّي طويت كشحا عن ذكر شواهد أخرى من هذا التنوّع لكون الغرض مجرّد التمثيل لا الاستقصاء.

التنوّع المذهبي في تونس:

ممّا لاشكّ فيه أنّ الأغلبيّة الساحقة في تونس كانت للمسلمين لعدّة عوامل تاريخيّة وجغرافيّة لا يسع المقام لذكرها، إلّا أنّ هذه الأغلبيّة لم تكن في يوم من الأيّام متجانسة بل كانت تستبطن تنوّعا مذهبيّا كبيرا يمكن تلخيصه في ثلاثة اتجاهات كبرى:

- المذهب السنّي
- المذهب الشيعي
- المذهب الخارجي

وكلّ اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة يستبطن أيضا تنوّعا داخليّا فالفرق السنيّة الكبرى التي كان لها حضور حقيقيّ هي (المالكيّة، الحنفيّة، الأوزاعيّة)، والفرق الشيعيّة هي (الزيدية، الإسماعيليّة، الإماميّة)، والفرق الخارجيّة يمكن حصرها في (الصفريّة والإباضيّة).

وليس مرادنا من هذه المذاهب مجرّد تسجيل من تمذهب بها تاريخيّا، بل إنّنا نريد أنّها أصبحت في فترة من الفترات تمثّل الطابع العام لتونس أو ما جاورها بحيث يمكن اعتبارها المذهب الرسميّ نتيجة لكون الدولة الحاكمة قد تبنّت هذا المذهب أو ذاك.

وقد أقرّ بهذا التنوّع المذهبي السابقون واللاحقون:

فمن السلف الذين نصّوا على هذا التنوّع المذهبي القاضي عياض اليحصبي الذي قال في مداركه: وأمّا أفريقيّة وما وراءها من المغرب فقد **كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين**[1]، إلى أن دخل عليّ بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم **بمذهب مالك** فأخذ به كثير من الناس...وكان بالقيروان قوم قلّة في القديم أخذوا **بمذهب الشافعي** ودخلها شيء **من مذهب داوود،** ولكن الغالب إذ ذاك مذهب المدينة والكوفة[2].

بل ذكر ابن سهل الرازي نصّا أخطر من هذا يفيد أنّ التنوّع لم يكن في جانب المذاهب الفقهيّة فقط بل كان يشمل الأصول الاعتقاديّة حيث قال عند حديثه عن خبر إدريس صاحب الدولة العلويّة بالمغرب: فوقعوا بأرض إفريقيّة، **وكان الغالب على أهلها**[3] **الخوارج والمعتزلة**[4].

ومن المعاصرين الذين أقرّوا هذا التنوّع المذهبي الأستاذ عبد العزيز المجدوب في كتابه القيّم "الصراع المذهبي بإفريقيّة" حيث قال في مقدّمته: وظهر ببلاد المغرب ما ظهر ببلاد المشرق من فرق وأحزاب

(1)المراد من مذهب الكوفيين هو مذهب أبي حنيفة النعمان.

(2)ترتيب المدارك 26/1.

(3)في سنة 169 هـ بعد وقعة فخّ.

(4)أخبار فخ 173.

ومنازعات وانتفاضات كان لها صداها البعيد وتأثيرها الواضح في بناء هيكل الثقافة الإسلاميّة بهذه الربوع...**ظهر الخوارج من صفريّة وإباضيّة وأرباب الاعتزال والإرجاء، وساد التشيّع في أبشع مظاهره، كما ظهر الفقه برجاله من المالكيّة والأحناف والشافعيّة**[1].

فلا تتعجّب أخي القارئ إذا سمعت أنّ المذهب الشيعي قد حكم البلاد لقرون وكان المذهب الرسمي لأهلها، ولا تستغرب إذا رأيت هنا أو هناك أثرا لمذهب من المذاهب غير السنيّة فإنّ تاريخ تونس مشحون بالتحوّلات ومليء بالمتغيّرات.

نعم، قد يعترض معترض بأنّ هذا التنوّع المذكور قد ذهب مع الماضي السحيق واستقرّت البلاد على المذهب السنّي المالكي، فما فائدة تعداد مذاهب قد اندثر أهلها ولم يعد لهم وجود حقيقيّ؟

والجواب من جهتين:

فمن جهة يكفيك لدفع هذا التوهّم أن تعلم أنّ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور هو أوّل مالكيّ أصبح شيخا للإسلام بتونس (مفتي) وذلك في سنة 1932م، وقبل هذا التاريخ كان المذهب الرسمي لتونس هو "الحنفي" وكان شيخ الإسلام المتصدّي للإفتاء لابدّ أن يكون حنفيّ

([1])الصراع المذهبي بإفريقيّة 10.

المذهب وذلك من سنة 1611م أي ما يزيد عن ثلاثة قرون![1]

ومن جهة أخرى يكفيك أن تتجوّل في بعض مدن تونس كجزيرة جربة لتكتشف أنّ الإباضيّة لم تنقطع في هذه البلاد، فلازال أتباع هذا المذهب الذي ينتمي تاريخيّا للخوارج[2] يعيشون في ربوع الخضراء ويشكّلون لونا من ألوان التنوّع المذهبي في تونس.

من هنا ننتهي إلى أنّ الحديث حول الاختلاف الديني والمذهبي في تونس ليس حديث خرافة أو فصلا من أساطير الأوّلين، بل هو حقيقة وواقع نلمسه على الأرض ونعايشه يوميّا، وبالتالي فإنّ محاولات إقصاء هذه الفرق والأديان من المشهد التونسي هو عمل لا أخلاقيّ بل جريمة حقيقيّة تتعدّى أتباع هذه الأديان والمذاهب لتسجّل ضدّ تاريخ تونس وحاضرها بل ومستقبل هذه البلاد.

كيف أصبحت تونس مالكيّة؟

نأتي إلى مربط الفرس ومعقد المئزر وهو السؤال المهمّ في كلّ ما تقدّم:

([1])والسبب في ذلك أنّ تونس كانت تابعة للدولة العثمانيّة التي تبنّت المذهب الحنفي وجعلته المذهب الرسمي لها، وهذا من شواهد كون اختيار المذاهب هو أمر سياسيّ لا أكثر.

([2])ينفي الإباضيّة عن أنفسهم هذه التسمية ويعتبرونها من التهم السياسيّة الملفّقة ضدّهم، لكنّهم لا ينفون مطابقة عقائدهم لما كان عند الخوارج.

كيف أصبح الطابع العامّ لتونس بل كلّ المغرب العربيّ مالكيّا، وبعبارة أوضح: كيف أصبح "المذهب المالكي" هو المذهب الرسمي في هذه المنطقة؟[1]

قبل كلّ شيء لابدّ من تسليط الضوء على حقيقة بل سنّة تاريخيّة وهي أنّ "الناس على دين ملوكهم"، فلو قرأت كلّ التاريخ البشري تجد أنّ الناس يتبعون في أديانهم ما عليه ملوكهم، حيث إنّ الدين الرسمي لأيّ بلد هو دين الملك لا غير.

وكذلك المذاهب الإسلاميّة فإنّها ارتبطت بالحكومات ارتباطا وثيقا بحيث كان للبلاط دور مهمّ في رعايتها وترسيخها بل ونشرها في مشارق الأرض ومغاربها، فنحن إذن نتحدّث عن حالة تزاوج معلن بين السلطة السياسيّة والدينيّة يخدم فيه كلّ طرف مصالح الآخر!

وقد صرّح ابن حزم الأندلسي بهذه الحقيقة المرّة في قوله: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف[2] كانت القضاة من قبله، فكان لا يولّي قضاء

---

(1) لو قمت بطرح هذا السؤال على رافعي شعار "تونس مالكيّة وستبقى مالكيّة" كيف أصبحت تونس مالكيّة؟ فلن تجد جوابا يشفي الغليل عند هؤلاء، ولذلك عزمت على تناول هذا البحث والإجابة على هذا السؤال لكي تتّضح الصورة.

(2)يعقوب بن إبراهيم الأنصاري من كبار تلامذة أبي حنيفة النعمان توفي سنة 182هـ.

البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلّا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاضٍ في أقطارنا إلّا بمشورته واختياره، ولا يشير إلّا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سرّاع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أنّ يحيى بن يحيى لم يلِ قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم، **وكذلك جرى الأمر في أفريقية لما ولي القضاء بها سحنون بن سعيد، ثم نشأ الناس على ما أنشر**[1].

فليس الأمر حكرا على المذهبين المذكورين بل كلّ المذاهب كذلك، وهذه حقيقة يعرفها كلّ من اطّلع على تاريخ المسلمين!

وبالرجوع إلى أصل نشأة المذهب المالكي نجد أنّه ربيب بلاط الخلافة العباسيّة الفتيّة التي كانت تبحث عن عوامل توطيد حكمها وتثبيت عرشها، خصوصا مع وجود حركات معارضة شرسة جدّا كان أخطرها حركات العلويّين.

وقد نقل كثير من أهل الرواية والأخبار أن تأليف كتاب "الموطّأ" –

([1])رسائل ابن حزم 229/2.

عمدة تراث الإمام مالك بن أنس- كان بطلب من أبي جعفر المنصور، فقد نقل القاضي عياض هذه القصّة في مداركه: قال: وقال له أبو جعفر وهو بمكة: اجعل العلم يا أبا عبد الله علماً واحداً، قال فقلت له: يا أمير المؤمنين إنّ أصحاب رسول الله (ص) تفرّقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رآه؛ وفي طريق: إنّ لأهل هذه البلاد قولاً ولأهل المدينة قولاً ولأهل العراق قولاً تعدوا فيه طورهم، فقال—أبو جعفر المنصور-: أمّا أهل العراق فلست أقبل منهم صرفاً ولا عدلاً، **وإنّما العلم علم أهل المدينة فضع للناس العلم**؛ وفي رواية فقلت له إن أهل العراق لا يرضون علمنا، فقال أبو جعفر **يضرب عليه عامتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط...(1)!**

وممّا يؤكّد هذا المعنى ما نقله الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن وهب: حججت سنة ثمان وأربعين ومائة، وصائح يصيح: **لا يفتي الناس إلّا مالك بن أنس**، وعبد العزيز بن أبي سلمة(2)؛ فالظاهر أنّ هذه السياسة طبّقت في تلك الفترة بحيث منع غير مالك من الإفتاء وحمل الناس على مذهبه حملا وأجبروا عليه إجبارا!

([1])ترتيب المدارك 72/2.

([2])تاريخ بغداد 436/10.

ولو جئنا إلى تاريخ تونس فإنّنا أمام مرحلتين لترسيخ المذهب المالكي فيها، استعمل في كليهما السلطة والرئاسة بحسب تعبير ابن حزم الأندلسي:

ففي بدء الأمر كان المذهب المالكي حاضرا مع بقيّة المذاهب الأخرى لاسيما المذهب الحنفي الذي كان له أيضا جمهوره بل له علماؤه وفقهاؤه الكبار، ولعلّ البداية الحقيقيّة له كانت مع أسد بن فرات الذي ذكروا في ترجمته أنّه حامل راية الحنفيّة في تونس:...ثم ارتحل إلى المشرق فلقي من أصحاب أبي حنيفة القاضي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وأسد بن عمرو...وسمع الفقه بمصر على عبد الرحمن بن القاسم وعنه دوّن الأسديّة، وقدم بها القيروان فسمعها منه خلق كثير منهم سحنون وغيره، **ثم أظهر مذهب أبي حنيفة لقضيّة تركناها وأخذه الناس عنه** وانتشرت إمامته[1].

وهذا دليل على أنّ مذهب أبي حنيفة قد دخل تونس وانتشر فيها في القرن الثاني حيث أنّ وفاة أسد بن فرات كانت في سنة 213 للهجرة أي معاصرا لرافع راية المذهب المالكي وراعيه في تونس وهو الإمام سحنون الذي توفي في سنة 240هـ، فلم يكن هناك تقدّم واضح لأحد

([1])معالم الإيمان 5/2.

المذهبين بل كانت البلاد تتأرجح بينهما لاسيما وأنّ منصب القضاء كان من نصيب المذهبين.

لكنّ التحوّل الحقيقي كان مع الإمام سحنون الذي كان شديد التعصّب لمذهب مالك لاسيما بعد تولّيه القضاء، فقد نقل لنا التاريخ صورا عجيبة لتعامل هذا الرجل مع مخالفيه:

فقد نقل القاضي عياض ما فعله بمن عبّر عنهم بـ"أهل الأهواء": وأوّل القضاة فرّق حلق أهل البدع، وشرّد أهل الأهواء منه، وكانوا فيه حلقا من الصفرية والإباضية المغيرية وكانوا فيه حلقا يتناظرون فيه ويظهرون زيفهم[1]، وعزلهم أن يكونوا أئمّة للناس أو معلّمين لصبيانهم أو مؤذّنين، وأمرهم أن لا يجتمعوا، وأدّب جماعة منهم بعد هذا، خالفوا أمره، وأطافوا، وتوّب جماعة منهم، فكان يقيم من أظهر التوبة، منهم علي البوا كذا وغيره، فيعلن بتوبته عن بدعته[2].

أمّا بالنسبة للمذاهب الفقهيّة السنيّة فلم تسلم من شدّته حيث كان يضيّق على أتباعها ولا يعيّن إلّا من كان مالكيّا كما قال ابن حزم:

([1])هذا النصّ يثبت الحالة الفكريّة المتقدّمة للقيروان حيث كانت تعقد المناظرات والمجادلات الدينيّة في المسجد الذي كان مظلّة للجميع، لكنّ سحنون لم يرق له ذلك من هذه الأنشطة الفكريّة وفرض لونا واحدا من التديّن.

([2])ترتيب المدارك 60/4.

ومذهب مالك بن أنس عندنا فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاضٍ في أقطارنا إلّا بمشورته واختياره، ولا يشير إلّا بأصحابه ومن كان على مذهبه...، **وكذلك جرى الأمر في أفريقية لما ولي القضاء بها سحنون بن سعيد، ثم نشأ الناس على ما أنشر**"[1].

ولذلك قال القاضي عياض: لا تذهب الأيام والليالي حتى تمحى كتب أبي حنيفة. فكان كذلك أيام سحنون[2].

فكانت شدّة سحنون وتعصّبه سببا للحضور القويّ للمذهب المالكي في بداية الأمر، ورجحان كفّته نوعا ما على باقي المذاهب السنيّة الأخرى في وقت من الأوقات وإن كان قد تراجع بعد وفاته، لكنّ الحسم الحقيقي كان في القرن الخامس من الهجرة على يد السلطان "المعزّ بن باديس الصنهاجي":

فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه سبب رجحان كفّة المالكيّة في بعض الأزمنة حيث قال في ترجمة المعزّ بن باديس الصنهاجي: وهذا المعزّ أول من **حمل الناس بأفريقية على مذهب مالك** وكان الأغلب عليهم مذهب

([1])رسائل ابن حزم 229/2.

([2])ترتيب المدارك 60/4.

أبي حنيفة[1].

وقال ابن خلّكان: وكان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقيّة أظهر المذاهب **فحمل المعزّ المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس** رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال في ذلك إلى الآن[2].

وذكر ابن تغري بردي في ترجمة فقيه الفاطميين أبو حنيفة النعمان: النعمان بن محمد أبو حنيفة المغربي الباطني قاضي مملكة المعزّ وكان حنفي المذهب لأن الغرب كان يوم ذاك غالبه حنفية **إلى أن حمل الناس على مذهب مالك فقط** المعز بن باديس الآتي ذكره[3].

وبمجموع هذه النصوص الثلاثة نصل إلى حقيقتين:

- **الأولى**: أنّ السواد الأعظم من أهل تونس كان يتديّن بالمذهب الحنفي لا المالكي كما يصوّر البعض ذلك.
- **الثانية**: أنّ غلبة المذهب المالكي وسطوته في تونس لم تكن إلّا بقرار سياسي من البلاط الحاكم.

وبمجموع ما تقدّم لابدّ من التصريح بهذه الحقيقة التي قد يراها البعض مرّة وهي أنّ مالكيّة تونس الحاليّة لم تكن إلّا قرارا سياسيا من

([1])الكامل في التاريخ 257/9.

([2])وفايات الأعيان 234/5.

([3])النجوم الزاهرة 107/4.

"المعزّ بن باديس الصنهاجي" لغرض تثبيت ملكه وتوطيد حكمه، وهذا ما يسقط هالة القداسة التي تضفى على "مالكيّة تونس" فهي ليست قرآنا نزل من السماء ولا خيارا اختاره الشعب بل هو قرار أحاديّ الجانب فرض على الناس فرضا وألزموا بتطبيقه.

وما أحسن ما قاله المقريزي في خططه حول المرحلتين المتقدّمتين من تاريخ المذهب المالكيّ في تونس: ثم لمّا ولي سحنون بن سعيد التنوخيّ قضاء افريقية بعد ذلك نشر فيهم مذهب مالك، **وصار القضاء في أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول** إلى أن تولّى القضاء بها بنو هاشم -وكانوا مالكية-، فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع،ثم إنّ المعز بن باديس حمل جميع أهل إفريقيّة على التمسّك بمذهب مالك وترك ما عداه من المذاهب، **فرجع أهل إفريقية وأهل الأندلس كلهم إلى مذهب مالك إلى اليوم رغبة في ما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا**، إذ كان القضاء والافتاء لجميع تلك المدن وسائر القرى لا يكون إلّا لمن تسمّى بالفقه على مذهب مالك، فاضطرّت العامّة إلى أحكامهم وفتاواهم، ففشا هذا المذهب هناك فشوّا طبق تلك الأقطار[1].

---

(1)المواعظ والاعتبار 150/4.

الخلاصة:

إنّ مالكيّة تونس لا تعني خلوّها من أديان ومذاهب أخرى بل كانت تونس ولازالت تتميّز بالتنوّع الديني والمذهبي الذي أثرى الحركة العلميّة فيها، والإصرار على منع هذا التنوّع تحت ستار "المالكيّة" هو تعطيل للحركة الحضاريّة لهذا المجتمع، أضف إلى هذا أنّ "المالكيّة" قد فرضت عليهم فرضا ولم تكن عن اختيار حرّ.

المذاهب الإسلامية

من الأمور التي يجب التطرّق لها في هذا البحث هو قضيّة حصر المذاهب الإسلاميّة بأربعة فقط، فلو سألت أيّ أحد من الناس عن المسلمين لأجابك بقوله : هم الأحناف والمالكيّة والشوافع والحنابلة دون غيرهم من الناس!

ولهذا فإن التعرّض لفكرة انحصار المذاهب بأربعة فقط هي من المقدّمات المهمّة في هذا البحث لكون هذا التربيع أصبح بمثابة السور الذي ضرب على الإسلام بحيث يمنع من النظر خارجه والتفكير في غير الأربعة المعهودة[1].

لا دليل على الحصر:

أوّل سؤال يواجه أنصار فكرة "تربيع المذاهب" هو ماهو الدليل على هذا الأمر بحيث تحصر الآراء الفقهيّة في المذاهب الأربعة المعهودة:

([1]) هناك بحث آخر مهمّ يسبق هذا البحث وهو السؤال عن الشرعيّة الدينيّة لهذه المذاهب، فما الذي يجعل قول أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي حجّة شرعيّة؟ وما الذي يلزم المسلم بالاقتداء بهؤلاء دون غيرهم؟ الكلام في هذا الموضوع يطول ويخرجنا عن الغرض من هذا الكتاب وإلّا فتحرير هذه النقطة يعتبر أمرا جوهريّا في قضيّة المذاهب.

الحنفيّة والمالكيّة والشافعيّة والحنبليّة ولا يعتدّ بغيرها من المدارس أو الآراء الأخرى؟!

إذ لا يوجد دليل شرعي على ذلك من آية قرآنيّة أو حديث نبويّ أو إجماع إسلاميّ على ذلك، بل لا يوجد حتّى مجرّد تأصيل شرعيّ لهذه المسألة ولم يدّع أحد وجود برهان على ذلك، وبالتالي فإنّ إلزام الناس بعدم الخروج عن حياض هذه المذاهب الأربعة ليس له أيّ أساس شرعيّ بل لم يدّع أحد ذلك قطّ.

العدد الفعلي للمذاهب:

ولو قمنا باستقراء تاريخيّ للمذاهب لوجدنا أنّها تزيد عن الأربعة بكثير:

فمثلا كان للأوزاعي (157هـ) مذهب كامل منتشر في بلاد المسلمين، قال الذهبي: كان له مذهب مستقل مشهور ، عمل به فقهاء الشام مدة ،وفقهاء الأندلس، ثم فني[1].

وكان مذهب سفيان الثوري (161هـ) موجودا في بعض البقاع، قال ابن تيميّة: وأما الأئمة المذكورون: فمن سادات أئمة الإسلام، فإن

(1)سير أعلام النبلاء 117/7.

الثوريّ إمام أهل العراق، وهو عند أكثرهم أجل من أقرانه: كابن أبي ليلى، والحسن بن صالح بن حيي، وأبي حنيفة، وغيره، وله مذهب باق إلى اليوم بأرض خراسان[1].

ومن المذاهب المشهورة المذهب الظاهري الذي أسّسه داود بن علي الظاهري (270هـ)، قال ابن خلّكان في ترجمته: الإمام المشهور المعروف بالظاهري كان زاهدا متقللا كثير الورع أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهما وكان من أكثر الناس تعصبا للإمام الشافعي رضي الله عنه وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين وكان صاحب مذهب مستقل وتبعه جمع كثير يعرفون بالظاهرية[2].

بل حتّى المفسّر والمؤرّخ محمد بن جرير الطبري (310هـ) كان له مذهب مستقّل، وكان له أتباع عرفوا بـ"الجريريّة"، قال السمعاني في الأنساب: الجريري بفتح الجيم والياء المنقوطة باثنتين من تحتها بين الرائين المهملتين، هذه النسبة إلى جرير بن عبد الله البجلي وإلى أتباع مذهب محمد بن جرير الطبري[3].

فهذه بعض نماذج المذاهب المعتدّ بها والخارجة عن حياض الأربعة

([1])الفتاوى الكبرى 328/2.

([2])وفيات الأعيان 255/2.

([3])الأنساب 52/2.

المعهودة، وما ذكرناه هو من باب التمثيل فقط لا تمام الاستقراء وإلّا فالعدد كبير جدّا!

التربيع قرارسياسي:

نأتي الآن إلى مربط الفرس وهو منشأ هذه الفكرة المنتشرة وهي أنّ الإسلام منحصر في المذاهب الأربعة دون غيرها، فما هي الأسباب التاريخيّة التي ولّدت هذا الحصر؟

الجواب بكلّ بساطة هو أنّ السياسة هي التي ولّدت هذا الحصر، فاعتماد المذاهب الأربعة والاعتداد بها وردّ غيرها كان نتيجة ظروف سياسيّة مكّنت الأربعة من البقاء والاستمرار وكتبت على البقيّة الفناء بحيث اندثرت ولم يبق لها أتباع!

البداية الحقيقيّة للحصر بدأت في سنة 631هـ عندما اقتصر الخليفة المستنصر على المذاهب الأربعة فقسّم بينهم هذه المدرسة وأهمل بقيّة المذاهب، قال ابن الفوطي: في جمادي الآخرة، تكامل بناء المدرسة المستنصريّة التي أمر بإنشائها الخليفة المستنصر بالله، وكان الشروع فيها في سنة خمس وعشرين وستمائة، وأنفق عليها أموال كثيرة...ثم قسمت الأرباع: **فسلّم ربع القبلة الأيمن إلى الشافعية، والربع الثاني يسرة القبلة**

للحنفيّة، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجري لهم الجراية الوافرة. عملاً بشرط الواقف[1].

وبطبيعة الحال فإنّ وجود دعم حكوميّ ماليّ لهذه المدرسة سيضمن استمراريّتها وتخريج أكبر عدد من طلبة العلم الذين سينشرون هذه المذاهب الأربعة، وفي المقابل قلّة من يتمذهب بالمذاهب الأخرى وبالتالي بداية انحسارها وفقدانتها عنصر استمرارها.

أمّا اللحظة التاريخيّة لفكرة الحصر فإنّها كانت في زمن "الظاهر بيبرس" الذي حصر الاجتهاد في المذاهب الأربعة وجعل مناصب الدولة حكرا عليها، وقام بإقصاء كلّ المذاهب الأخرى من الساحة الدينيّة والسياسيّة!

قال المقريزي مؤرّخا لهذا القرار: فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، ولي بمصر والقاهرة أربعة قضاة، وهم شافعيّ ومالكيّ وحنفيّ وحنبليّ. فاستمرّ ذلك من سنة خمس وستين وستمائة، **حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة**، وعقيدة الأشعريّ، وعملت

([1])الحوادث الجامعة 80.

لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام، **وعودي من تمذهب بغيرها وأنكر عليه**، ولم يولّ قاض ولا قبلت شهادة أحد ولا قدّم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء هذه الأمصار في طول هذه المدّة بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها[1]، والعمل على هذا إلى اليوم[2].

ومن ذلك اليوم أصبحت هذه المذاهب الأربعة شرعيّة في نظر الناس تبعا لدعم السلطات لها، وصار غيرها منبوذا لنبذ الحكّام لها فالقضيّة أوّلا وآخيرا هي سياسيّة بحتة، وفتاوى الفقهاء كانت مجرّد غطاء شرعيّ لهذه القرارات

خطورة هذا الحصر:

أنّ قضيّة حصر المذاهب في أربعة فقط كان من أهمّ عوامل انحطاط المسلمين وركودهم، وذلك بسبب إغلاق باب الاجتهاد وتجميد العقل الفقهي بل قتل لكلّ إبداع فيه!

وقد عبّر السيد سابق عن الآثار السلبيّة الوخيمة لهذا الأمر بقوله: وبالتقليد والتعصب للمذاهب فقدت الأمّة الهداية بالكتابة والسنة،

([1])من الذين أفتوا بحصر التقليد في المذاهب الأربعة ابن الصلاح المتوفّى سنة 643هـ

([2])المواعظ والاعتبار 167/4.

وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد، وصارت الشريعة هي أقوال الفقهاء، وأقوال الفقهاء هي الشريعة، واعتبر كل ما يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعا لا يوثق بأقواله، ولا يعتد بفتاويه؛ وكان مما ساعد على انتشار هذه الروح الرجعية، ما قام به الحكام والأغنياء من إنشاء المدارس، وقصر التدريس فيها على مذهب أو مذاهب معيّنة، فكان ذلك من أسباب الإقبال على تلك المذاهب، والانصراف عن الاجتهاد، محافظة على الأرزاق التي رتّبت لهم[1].

والأمر الآخر هو إذكاء العصبيّة المذهبيّة وقتل التسامح الدينيّ، فقد أصبح المسلمون ينظرون نظرة إزدراء إلى كلّ من خرج عن هذه المذاهب الأربعة وعمل بسواها، بل اعتبروه صاحب بدعة إن لم يكن زندقة وكفر، وقد ذاقت الأمّة الويلات بسبب هذا التعصّب المذهبي الذي فرّقها وأذهب ألفتها، وما عليك إلّا أن تطّلع على ما جرى في المجتمعات الإسلاميّة بسبب هذا القرار، وسيأتيك في طيّات هذا الكتاب فصل كامل يتحدّث عن آثار هذه المصيبة.

([1])فقه السنّة 13.

الخلاصة:

تبيّن لك أنّ حصر الإسلام في أربعة مذاهب ليس إلّا وليد سياسات بعض الحكّام الذين ألبسوا قراراتهم ثوب القداسة بمساعدة بعض فقهاء بلاطهم فأصبح الأمر دينا يتديّن به إلى يومنا هذا! وبالتالي يمكننا أن نقولها ونرفع الصوت بها عالية: لا وجود لأيّ مستند شرعيّ لهذه المذاهب الأربعة.

الشيعة والتشيع

قبل الخوض في تاريخ التشيع في تونس لابدّ من تعريف القارئ بمصطلح "الشيعة" و"التشيّع" لكونهما سيتكرّران معنا كثيرا في طيّات هذا الكتاب، فتوضيح الصورة للقارئ الكريم في البدء هو أمر ضروري لمنع وقوع أيّ لبس ووهم في الفصول الآتية:

التشيّع لغة:

إذا رجعنا إلى كتب اللغة فإنّنا نجد كلمات اللغويين متفقة على أنّ التشيّع قد اشتق من المشايعة بمعنى المتابعة، حيث قال ابن منظور: والشِّيعةُ: أَتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شِيَعٌ، وأشياعٌ جمع الجمع، ويقال : شايعه كما يقال والاه من الوَلْيِ[1].

وقد سار الذكر الكريم على هذا المعنى اللغوي فقال عزّ من قائل:

- ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾ أي إنّ نبي الله إبراهيم (ع) قد تابع نبي الله نوح (ع).

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ والمراد أنّ أحدهما كان متابعا لنبي الله موسى (ع).

([1])لسان العرب 188/8.

ومن هنا فإنّ التعبير بأنّ فلانا من شيعة فلان يراد به أنّه متّبع له سائر على نهجه موافق له في أمره.

التشيّع اصطلاحا:

أمّا من جهة الاصطلاح فإنّ هذه اللفظة قد اختصّت بالفرقة التي تابعت الإمام عليّ (ع) وذريّته من بعده بحيث إذا قال أحد "الشيعة" فإنّه ينصرف إلى هذه الفئة من الناس دون غيرهم، وإلى هذا يشير ابن منظور في لسانه: وقد غلب هذا الاسم على من يتوالى عليا وأهل بيته، رضوان الله عليهم أَجمعين، حتى صار لهم اسما خاصّا فإذا قيل: فلان من الشِّيعة عُرِف أَنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم، وأَصل ذلك من المشايعة، وهي المُتابعة والمطاوعة؛ قال الأَزهري: والشِّيعة **قوم يهوون هوى عتْرة**[1] **النبي، صلى الله عليه وسلّم، ويُوالونهم**[2].

وقد وردت بعض الروايات التي تنصّ على أنّ هذه التسمية قد وردت على لسان النبي **صلى الله عليه وسلّم** كما يظهر ذلك لمن قلّب بطون المجاميع التفسيريّة والروائيّة:

فمن يرجع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ يجد عدّة نصوص تفسّرها بالشيعة:

فقد روى الطبري في تفسيره بسنده عن محمد بن علي: أولئك هم

([1])عترة الرجل أهله وبقيّته من بعده.

([2])لسان العرب 189/8.

خير البريّة فقال النبي (ص): **أنت يا علي وشيعتك**[1].

وروى ابن عساكر مسندا عن جابر بن عبد الله الأنصاري: كنّا عند النبي (ص) فأقبل علي بن أبي طالب فقال النبي (ص) قد أتاكم أخي، ثم التفت إلى الكعبة فضربها بيده ثم قال: والذي نفسي بيده **إنّ هذا وشيعته** لهم الفائزون يوم القيامة، ثم قال: إنّه أوّلكم إيمانا معي وأوفاكم بعهد الله وأقومكم بأمر الله وأعدلكم في الرعيّة وأقسمكم بالسويّة وأعظمكم عند الله مزيّة، قال ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قال فكان أصحاب محمد (ص) إذا أقبل عليّ قالوا: قد جاء خير البرية[2].

وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله (ص) لعليّ: **هو أنت وشيعتك** يوم القيامة راضين مرضيين[3].

وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال: قال لي رسول الله (ص): ألم تسمع قول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ **أنت وشيعتك** وموعدي وموعدكم الحوض إذا جثت الأمم للحساب تدعون غرّا محجلين[4].

([1])تفسير الطبري 335/30.

([2])تاريخ مدينة دمشق 370/42.

([3])الدرّ المنثور 379/6.

([4])الدرّ المنثور 379/6.

ومن هنا فإنّ علماء الشيعة يعتبرون أنّ هذه التسمية لم تأت من فراغ، بل إنّها وليدة مجموعة من الأحاديث النبويّة التي ربطت النجاة يوم القيامة والأمن يوم الفزع الأكبر بالتمسك بعليّ وآل عليّ (ع)، ولذلك كانت الطبقة الأولى من الشيعة هم الصحابة الذين اتبعوا تعاليم النبي (ص) وجعلوا من عليّ بن أبي طالب المبلّغ الأوّل لسنة النبي (ص) بل والمفسّر الأوّل لآيات الكتاب والكاشف عن حكمه وأحكامه.

ولو قرأت الكتب التي عنيت بترجمة الصحابة فإنّك تجد مجموعة منهم قد وسمت بالتشيّع لأجل ارتباطهم الوثيق بالإمام عليّ (ع) ومن هنا قال علّامة المغرب ابن خلدون:...أنّ جماعة من الصحابة **كانوا يتشيّعون لعليّ** ويرون استحقاقه على غيره، ولما عدل به إلى سواه تأفّفوا من ذلك وأسفوا له مثل الزبير ومعه عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم[1].

وقبله فصّل أبو حاتم الرازي الأمر بقوله: يقال إنّ الشيعة لقب لقوم كانوا قد ألفوا أمير المؤمنين عليّا رضوان الله عليه في حياة رسول الله (ص) وعرفوا به مثل سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمّار بن ياسر وغيرهم، كان يقال لهم "شيعة عليّ"

([1]) تاريخ ابن خلدون 171/3.

و"أصحاب عليّ"...ثم لزم هذا اللقب كلّ من قال بتفضيله إلى يومنا هذا[1].

ثم يقول:ولم يلقّب أحد من المسلمين بشيء من الألقاب في حياة رسول الله (ص) ولا اشتهروا به إلّا هذا اللقب الواحد، وإنّما حدثت الألقاب بعد وفاته (ص) حين أبدعوا البدع وتفرّقوا في الأهواء وقد كان لها ذكر قبل ذلك[2].

وبناء على ما تقدّم فإنّ التشيّع بمعنى حبّ عليّ (ع) ومتابعته قد نشأ في زمن النبي (ص) فهو الذي غرسه في نفوس الصحابة ورعاه طيلة فترة حياته، بل هو الذي أطلق على هذه الجماعة هذه التسمية "الشيعة"التي أصبحت علما لهم إلى يوم القيامة.

التشيّع في كتب الفرق:

إنّ المعنى المتقدّم للتشيّع هو ما يصطلح عنه بـ"التشيّع بمعناه الأعمّ" في قبال "التشيّع بمعناه الأخصّ" وهو المذهب الذي يوضع عادة في قبال السنّة والمعتزلة والخوارج، ولهذا فإنّنا نحتاج إلى إطلالة على كتب الملل والنحل لكي نستكشف المعنى الدقيق للتشيّع بمعناه الأخصّ ويتضح الفارق بين المصطلحين لدخالتهما في بحثنا.

([1]) الزينة 488/2.

([2]) الزينة 488/2.

عرّف الشهرستاني الشيعة بقوله: الشيعة هم الذين شايعوا عليّا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصّا ووصيّة إمّا جليّا وإمّا خفيّا، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقيّة من عنده، وقالوا ليست الإمامة قضيّة مصلحيّة تناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضيّة أصوليّة وهى ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله، يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوبا عن الكبائر والصغائر والقول بالتولّي والتبرّي قولا وفعلا وعقدا إلّا في حال التقيّة[1].

وقال أبو الحسن الأشعري في مقالاته: فالشيع ثلاثة أصناف وإنما قيل لهم الشيعة لأنهم شيعوا علياً رضوان الله عليه ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول الله (ص)[2].

وبمجموع التعريفين يتبيّن أنّ التشيّع بمعناه الأخصّ يتقوّم بأمور:

- الاعتقاد بأنّ الإمامة ركن من الأركان وأنّها واجبة على الله.
- الاعتقاد بعصمة الأنبياء والأئمّة عصمة مطلقة.
- الاعتقاد بإمامة علي بن أبي طالب (ع) بعد النبي (ص) بلا

(1) الملل والنحل 146/1.

(2) مقالات الإسلاميين 5.

فصل ثم ذريّته من بعده.

ومن هنا فإنّ علّامة الشيعة المفيد قد اعتبر أنّ هذا الاسم جامع للفرق الشيعيّة الكبرى، قال: وإذا ثبت ما بيناه بالسمة بالتشيع كما وصفناه وجبت للإماميّة والزيديّة الجاروديّة من بين سائر فرق الأمّة[1] لانتظامهم بمعناها وحصولهم على موجبها، ولم يخرجوا عنها وإن ضموا إليها وفاقا بينهم أو خلافا في أنحاء من المعتقدات[2].

ومن هنا تعلم أيّها القارئ الكريم أنّه إذا أطلقنا لفظة التشيّع فإنّنا نريد معناه الأخصّ وهو الاسم الجامع لهذه الفرق الثلاث الكبرى:

- الإماميّة
- الزيديّة
- الإسماعيليّة

---

(1) يضاف إليهم الإسماعيليّة التي تعمّد الشيخ المفيد إهمالها، ولعلّ السبب هو الظروف السياسيّة التي كانت في عصره حيث كان الصراع محتدما بين الفاطميين والعباسيين.

(2) أوائل المقالات 37.

الصفحة الأولى: الفتوحات الإسلاميّة

لا يمكن الحديث عن المذاهب والفرق في شمال أفريقيا بمعزل عن قصّة دخول الإسلام إلى هذه المناطق حيث إنّ الوقوف عند هذا الحدث التاريخيّ -الذي غيّر كلّ المنطقة- يعتبر حجر الأساس لفهم كلّ ما حصل من أحداث بعدها لاسيما نشأة المذاهب والفرق في كلّ الشمال الإفريقي.

خارطة الفتح:

بدأ توجّه جيوش المسلمين ناحية القارّة الإفريقية منذ السنة 19هـ حيث كانت نقطة دخولهم لهذه القارّة عبر بلاد مصر التي كانت تحت سلطان الدولة البيزنطيّة، وقد شنّ المسلمون الغارات الكثيرة عليها ودخلوا في معارك طاحنة انتهت بسيطرتهم على مصر في سنة 21هـ وانسحاب الروم منها.

وبعد أن توطّد ملكهم في مصر بدأت مسيرة التوسّع نحو الغرب في سنة 22هـ حيث اتسعت رقعة الدولة الإسلاميّة لتغطيّ كلّ البلاد المصريّة بل لتصل إلى مدينة برقة الليبية فمدينة طرابلس وما جاورها

بحيث دخلت ليبيا ومصر رسميّا تحت الحكم الإسلامي في أواخر سنة 22هـ.

وبعد توقّف لعدّة سنوات استمرّ المسلمون في التوسّع ناحية إفريقيّة حيث اتفقت المصادر التاريخيّة على أنّ الفتح استؤنف بعد سنة 25 في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، لكن وقع الخلاف في تحديد السنة التي صدر فيها القرار الرسمي حيث جعلوها بين 27 و29هـ[1].

وقد دخل الجيش الإسلامي في معارك ضارية مع القبائل البربريّة التي كانت تسكن في تلك المناطق حيث استمرّت محاولات فتح هذه البلاد عشرات السنين ولم يتم الفتح نهائيّا لبقيّة المغرب العربي إلّا على يد موسى بن نصير في حدود سنة 90هـ.

فاتحون أم غزاة؟

من النصوص التاريخيّة المهمّة التي لابدّ من الوقوف عندها هو ما نقله ابن خلدون في تاريخه من أنّ البربر ارتدّوا بإفريقيّة المغرب اثنتي عشرة مرّة وزحفوا في كلّها للمسلمين ولم يثبت إسلامهم إلّا في أيّام موسى بن نصير[2].

---

(1) فتوح البلدان 267/1.

(2) تاريخ ابن خلدون 103/6.

والأسئلة الملحّة هنا:

لماذا لم يثبت إسلام البربر كما ثبت إسلام غيرهم؟

ولماذا استمرّت مقاومتهم للإسلام طيلة هذه الفترة؟

جواب هذه الأسئلة يكون بالرجوع إلى تاريخ المنطقة قبل الإسلام حيث نجد أنّ البربر كانوا يعانون من ظلم البيزنطيين واضطهادهم حيث ملكوا أرض البربر وما عليها، وإلى هذا يشير ابن خلدون بقوله: وكذا الأمّة الذين كانوا بإفريقيّة غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها إنّما كانوا من الفرنجة[1].

ولهذا فإنّهم كانوا ينتظرون اللحظة التي يتخلّصون فيها من وطأة هذا الحكم البغيض، وقد تحقّق ما كانوا يأملونه عندما بدأ يطرق أسماعهم دين الإسلام، ذلك الدين الذي يدعو للعدل والمساواة ويرفض الظلم والاضطهاد، ولهذا فإنّ البربر قد استقبلوا طلائع جيوش المسلمين بالترحيب ولم يظهروا أيّ مقاومة لهم، يشهد بذلك ما نقله المؤرّخون من دخول بعض المدن تحت حكم المسلمين دون قتال[2].

لكنّ الصدمة التي مُني بها البربر أنّ هؤلاء الذين كان ينتظرون منهم

([1]) تاريخ ابن خلدون 107/6.

([2]) تاريخ ابن خلدون 128/2.

تحريرهم وبثّ العدل والمساواة بينهم لم يختلفوا كثيرا عن سابقيهم حيث اكتشفوا أنّ هذا "الفتح" لم يكن إلّا احتلالا قد غلّف بغلاف دينيّ وإلّا فأفعال "الفاتحين" كانت لا تقلّ سوءا عن أباطرة بيزنطة، إذ لم يكن الإسلام هو الدافع الأساسيّ لهذه الحروب بل كانت هناك دوافع أخرى كانت أساس هذه المعارك:

فقد كان الدافع المادّي هو الدافع الأكبر لهذه الحروب فالدخول لكلّ قرية أو مدينة يعني استباحتها وجعل كلّ ما فيها من مال ورجال ونساء غنيمة للجنود والقادة والخليفة!

وقد ذكر بعضهم هذا الدافع صراحة، فهذا الطبري ينقل عن خالد بن الوليد بطل هذه الحروب أنّه: قام في الناس خطيبا يرغبهم في بلاد العجم ويزهّدهم في بلاد العرب وقال: ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلّا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ونولي الجوع والإقلال[1].

ومن هنا نجد أنّ المسلمين قد توقّفوا عن غزو إفريقيّة بعد أن قبضوا أموالا عظيمة، فقد روى ابن الحكم في فتوحه: فبثّ عبد الله بن سعد

([1]) تاريخ الطبري 559/2.

السرايا وفرّقها، فأصابوا غنائم كثيرة، فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقية، طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم، فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر، ولم يولّ عليهم أحدا، ولم يتّخذ بها قيروانا، فكانت غنائم المسلمين يومئذ كما حدّثنا عبد الملك بن مسلمة، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن أبي أويس، قال أبو الأسود مولى لنا قال: غزونا مع عبد الله بن سعد إفريقية، فقسم بيننا الغنائم بعد إخراج الخمس، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، للفرس ألفا دينار، ولفارسه ألف دينار، وللراجل ألف دينار. فقسم لرجل من الجيش توفّي بذات الحمام فدفع إلى أهله بعد موته ألف دينار[1].

فلو كان الغرض هو الإسلام فكيف يقبلون بالمال ويتركون الفتح؟

وإذا كان هذا حكم الله فلماذا رجعوا وفتحوا البلاد بعد أن صالحوا أهلها؟

علما أنّنا لا نحتاج إلى نصوص تاريخيّة تؤكّد هذا الأمر بل يكفي أن ننظر إلى خارطة الفتوحات لنجد أنّها اقتصرت على المناطق الغنيّة بالثروات الطبيعيّة والبشريّة فهم يتّبعون الأصفر من الذهب والأبيض من البشر ولذلك لم يتوجّهوا إلى إفريقيا السوداء رغم أنّ الأوضاع

---

(1) فتوح مصر والمغرب 211.

كانت مهيّأة لدخولهم لعدم وجود دولة بقوّة بيزنطة، بل اختاروا المناطق الساحليّة للأسباب المتقدّمة.

ومن هنا نصّ ابن عذاري على أنّ مثل هذه الأمور هي سبب لانقلاب البربر عليهم ومقاومة سلطانهم حيث قال: ثم إنّ عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وما والاها **أساء السيرة وتعدّى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين** وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله، فلما علم البربر خروج حبيب بن أبي عبيدة إلى بلاد الروم نقضوا الطاعة لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها وتداعت برابر المغرب بأسره، فثارت البربر بالمغرب الأقصى فكانت أوّل ثورة فيه وفي أفريقيّة في الإسلام[1].

علما أنّ البربر لم يثوروا إلّا بعد أن اكتشفوا أنّ ما يجري عليهم إنّما بأمر الخلفاء وليس مجرّد أخطاء فرديّة من القادة، فقد نقل لنا الطبري حادثة يمكنها أن تلخّص لنا الواقع الذي عاشه البربر حيث قال: وكان

(1) البيان المغرب 51/1.

من سبب تفريقهم أنّهم ردّوا على أهل الأهواء فقالوا: إنّا لا نخالف الأئمّة بما تجني العمال ولا نحمل ذلك عليهم[1]، فقالوا لهم: إنّما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبروهم[2]، فخرج ميسرة في بضعة عشر إنسانا حتى يقدم على هشام، فطلبوا الإذن فصعّب عليهم، فأتوا الأبرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أنّ أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفّلهم دوننا[3] وقال: هم أحقّ به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا لأنّالا نأخذ منه شيئا إن كان لنا فهم منه في حلّ وإن لم يكن لنا لم نرده، وقالوا:**إذا حاصرنا مدينة قال تقدّموا وأخّر جنده، فقلنا: تقدّموا فإنه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى إخوانه فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم، ثم إنّهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا ما أيسر هذا لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك وخلّيناهم وذلك، ثم إنّهم سامونا أن يأخذوا كلّ جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون**[4]، فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين ذلك

([1]) أي أنّ الجناية الواقعة علينا هي من قبل الولاة لا من قبل الخلفاء.

([2]) نبروهم: نختبرهم

([3]) أي أعطاهم الأنفال ولم يعطنا.

([4]) يعني أنّ السبي شمل حتّى المسلمات من البربر!

أم لا، قال: نفعل، فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا: هذه أسماؤنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه[1].

وهذا النص أفضل وصف لواقع البربر تحت حكم بني أميّة حيث استحلّوهم وما يملكون فتقاسم جند الخلافة الحرث والنسل، ولهذا يذكر الطبري في آخر هذا النص ثورة هؤلاء على حكم المسلمين فيقول: ثم كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقيّة وبلغ هشاما الخبر وسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا[2].

كما لا يمكننا إغفال دافع آخر لهذه الفتوحات وهو الدافع الذي ذكر في بعض النصوص الأخرى، فقد نقل الطبري اجتماعا للخليفة الثالث عثمان بن عفان -الذي بدأت في عصره فتوح إفريقيّة- مع وزرائه ومستشاريه على خلفيّة الحركة الاحتجاجيّة التي بدأت في فترة حكمه حيث طلب النصح والمشورة من أعوانه فقال: إنّ لكل امرئ وزراء ونصحاء وإنّكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ما قد

([1]) تاريخ الطبري 313/3.

([2]) البيان المغرب 51/1.

رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عمّالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ، فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين **أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك**، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلّوا لك فلا يكون همّة أحدهم إلّا نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه[1].

فالظاهر أنّ الدفع نحو الفتوحات كان له هدف آخر وهو تفريق كبار القوم عن مركز الحكم لكي لا يطمعوا في الكرسيّ ويكوّنوا قوّة معارضة لهذا الخليفة أو ذاك، ولهذا تمّ الدفع بهم في معارك ضارية لا آخر لها لكي يستنزفوا فيها ولا يرجعوا لما كانوا عليه.

ومن هنا فإنّ البربر اكتشفوا حقيقة هذه الفتوحات ودوافعها ولذلك لم يدخلوا في الإسلام حقيقة بل رضخوا تحت حكم السيف فيهم لتسلم دماؤهم ونساؤهم من الوحوش الضارية التي حلّت بفنائهم ولا حول ولا قوة إلّا بالله!

وما خفي أعظم:

للأسف الشديد فإنّ الحروب التي سميت بالفتوحات تعتبر من أكثر الصفحات دمويّة في تاريخ تونس والمغرب العربي، ذاق البربر فيها سوء

([1]) تاريخ الطبري 373/3.

العذاب من الجيوش الغازية التي نادت بالإسلام قولا وخالفت أبسط تعاليمه فعلا، وسأنقل للقارئ الكريم بعض النصوص التي ذكرها المؤرّخون وصفا لهذه الحقبة:

فمن الصور القبيحة لهذه المعارك ما نقل في بعض المصادر التاريخيّة من إجبار الناس على دفع الجزية ولو كان ذلك ببيع أبنائهم كعبيد!

قال ابن الحكم: فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة؛ **فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدّونها إليه جزية، على أن يبيعوا من أحبّوا من أبنائهم فى جزيتهم**؛ حدثنا عبد الملك بن مسلمة، حدثنا الليث بن سعد، قال: كتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر في شرطه عليهم **أنّ عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية**[1].

وهذا مخالف لأحكام الإسلام فالجزية لم تشرّع لتعجيز الناس وتفقيرهم بل هي ضريبة بسيطة يدفعها غير المسلم في مقابل الخدمات التي تقدّمها الدولة الإسلاميّة كحمايته من الأعداء وتوفير الأمن والأمان له، وقد اشترط فقهاء الإسلام أن يراعي السلطان حال الرعيّة فلا يثقل عليهم، أمّا أن تصل النوبة إلى إجبار الناس على بيع أبنائهم

(1) فتوح مصر والمغرب 197.

لأجل الجزية فهذا من الظلم والعدوان الذي لا يرضاه الله ورسوله!

ومن الصور القبيحة استعباد شعب البربر بأكمله واعتباره غنيمة للجيش، وقد نقلت النصوص أرقاما فلكيّة في ذلك، فهذا ابن كثير يروي في تاريخه عن هذه الحادثة: وقيل إنّه بعث ابنه مروان على جيش **فأصاب من السبي مائة ألف رأس، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس أيضا من البربر،** فلما جاء كتابه إلى الوليد **وذكر فيه أن خمس الغنائم أربعون ألف رأس** قال الناس: إنّ هذا أحمق، من أين له أربعون ألف رأس خمس الغنائم؟ فبلغه ذلك فأرسل أربعين ألف رأس وهي خمس ما غنم، ولم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب[1].

فإذا كان خمس الغنائم 40 ألف رأس فمجموع ما غنمه هو 200 ألف رأسا وليس هذا العدد إلّا مجموع سكّان تلك المناطق في ذلك الزمن، فالفاتحون اعتبروا أنّ كلّ البربر وما ملكوه غنيمة لهم ولذلك ملكوا الحرث والنسل وتقاسموه بينهم!

أضف إلى كلّ ما تقدّم المذابح والإبادات التي تعرّضوا لها، حيث كانت السمة البارزة لهذه الفتوح هي "الدمويّة"، فقد كان السيف يعمل

([1]) البداية والنهاية 196/9.

في كلّ مدينة يدخلون إليها، وقد نقل لنا ابن خلدون صورة ممّا كان يصنعه الفاتحون: كان عمرو بن العاص قبل وفاته استعمل عقبة بن عامر بن عبد قيس على إفريقيّة وهو ابن خالته، انتهى إلى لواته ومرانه فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم **وقتل وسبى**، ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غذامس، وفي السنة التي بعدها ودان وكورا من كور السودان **وأثخن في تلك النواحي**، وكان له فيها جهاد وفتوح، ثم ولّاه معاوية على إفريقية سنة خمسين، وبعث إليه عشرة آلاف فارس فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر فكبّر جمعه **ووضع السيف في أهل البلاد** لأنّهم كانوا إذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فإذا رجعوا عنهم ارتدّوا[1].

ونقل ابن قتيبة أحداث فتح صنهاجة حيث ذكر صورة مرعبة لشدّة القتل والتنكيل في هذه المعارك، قال: فسار موسى حتى غشي صنهاجة، ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون، **فقتلهم قتل الفناء، فبلغ سبيهم يومئذ مئة ألف رأس**، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى، ثم انصرف قافلا إلى القيروان، وهذا كله

---

(1) تاريخ ابن خلدون 10/3؛ أقول: لم يرتدّ هؤلاء إلّا بسبب شناعة ما رأوه من جيوش العرب، والحقّ أنّ هذه الجيوش هي الأولى بوصف الردّة لكونها رجعت عن تعاليم الإسلام السمحة إلى الجاهليّة الجهلاء.

في سنة ثمانين فلمّا سمعت الأجناد بما فتح الله على موسى وما أصاب معه المسلمون من الغنائم رغبوا في الخروج إلى الغرب، فخرج نحو مما كان معه، فالتقى المغيرة وصنهاجة، **فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم إنّ الله منحه أكتافهم وهزمهم، فبلغ سبيهم ستّين ألف رأس ثم انصرف قافلا**[1].

فهذه الممارسات البشعة التي لا يرضاها الله ورسوله هي السبب الرئيسي في امتناع البربر عن الخضوع لسلطان العرب والتسليم لهم ومن هنا نقل التاريخ ارتدادهم أكثر من مرّة.

أسطورة عقبة بن نافع!

لعلّ الكلام المتقدّم يجعلنا أمام قضيّة راسخة في وجدان أهل تونس وهي أنّ فاتح البلاد وداعيها الأوّل للإسلام هو "عقبة بن نافع الفهري" الذي سُطّرت حوله الكثير من القصص والحكايات التي ترقى به إلى مصافّ الملائكة فضلا عن الأولياء الصالحين!

فرغم أنّه لم يكن صحابيّا إلّا أنّهم ذكروا أحاديث على لسان النبيّ (ص) في فضل عقبة ومناقبه الجمّة:

فقد رووا أنّ البقعة التي قُتل فيها كان النبي (ص) نهى عن سكناها،

([1]) الإمامة والسياسة 54/2.

وقال: «سوف يقتل بها رجال من أمّتي على الجهاد في سبيل الله، ثوابهم ثواب أهل بدر، وأهل أحد، والله ما بدّلوا حتى ماتوا، واشوقاه إليهم» وقال شهر بن حوشب: سألت التابعين عن هذه العصابة، فقالوا: ذلك عقبة وأصحابه، قتلهم البربر، والنصارى بتهوده، فمنها يحشرون يوم القيامة، وأسيافهم على أعناقهم، حتى يقفوا بين يدي الله، تبارك وتعالى[1].

فبهذا يجعل عقبة بن نافع في مصافّ الصحابة المنتجبين الذين قاتلوا في حروب الإسلام الأولى واستشهدوا فيها، بل ويشتاق النبي (ص) إليهم ويتمنّى لقياهم!

وذكروا أنّه كان صالحا مستجاب الدعوة حيث روي عن التابعي ابن لهيعة محدّث مصر: وكان يقال: إنّ عقبة بن نافع كان مستجابا[2].

بل روي أعظم من هذا كلّه وهو أنّ الهوام والحشرات تستجيب لأمره، فقد روى صاحب الاستقصا في قصّة بناء القيروان: كانت بقعة القيروان غيضة لا يأوي إليها إلّا الوحوش والسباع، **فصاح بها عقبة أن اخرجي أيّتها الوحوش والهوام بإذن الله عزّ وجل فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شيء من الهوام المؤذية ولا السباع العادية،** ثم

([1]) طبقات علماء إفريقيّة 10، وفعلا لا أدري كيف ذكرت هذه البقعة المحدّدة عند النبي (ص) والحال أنّه لم يأت لإفريقيّة بل ولم يكن أحد من أصحابه منها!

([2]) طبقات علماء إفريقيّة 8.

شرع في بنائها وقال: هذه أوسع لإبلكم وآمن عليكم من روم القسطنطينية وإفرنج الجزيرة؛ وعن الليث بن سعد أنّ عقبة رحمه الله غزا إفريقية فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتّى إذا أصبح **وقف على رأس الوادي فقال: يا أهل الوادي أظعنوا فإنّا نازلون قال ذلك ثلاثا فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها ممّا لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة وهم قيام ينظرون إليها** من حين أصبحوا حتى أوهجتهم الشمس وحتّى لم يروا منها شيئا فنزلوا الوادي عند ذلك، قال الليث: فحدّثني زياد بن عجلان أنّ أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمست حيّة أو عقرب بألف دينار ما وجدت[1]!

وقال الطبري في تاريخه: كان معاوية بن أبي سفيان قد بعث قبل أن يولّي مسلمة مصر وأفريقية عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية، فافتتحها، واختطّ قيروانها، وكان موضعه غيضة -فيما زعم محمد بن عمر- لا ترام من السباع والحيات وغير ذلك من الدواب فدعا الله عز وجل عليها فلم يبق منها شيء إلّا خرج هاربا، حتّى أنّ السباع كانت تحمل أولادها[2].

([1]) الاستقصا 35/1، علما أنّ هناك اختلافا كبيرا في صاحب هذا القصّة حيث أشار بعضهم إلى كونه "عقبة بن عامر" لا "عقبة بن نافع".

([2]) تاريخ الطبري 187/4

هذا ما نسجته مخيّلة المنتصرين الذين كتبوا التاريخ، لكن لو نظرنا إلى الشخصيّة بنظرة واقعيّة غير مؤدلجة لرأينا العجب العجاب ولسمعنا ما تشيب له الرضعان:

أمّا عن دمويّته فينقل المؤرّخون سيرته في فتوحاته:

وفيها غزا عقبة بن نافع أفريقية، قال عريب في مختصره للطبري: فيها غزا بن نافع المغرب وافتتح غدامس **فقتل فيها وسبى**[1].

ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها ودخلها **ووضع السيف في أهلها** فأفنى من بها من النصارى[2].

ثم رجع عقبة إلى خاوار من غير طريقه التي كان أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا، فوجدهم مطمئنّين قد تمهّدوا في أسرابهم، **فاستباح ما في المدينة من ذرّيّاتهم وأموالهم، وقتل مقاتلتهم**[3].

وأغرب ما نقل عن عقبة هو احتقاره للبربر وتعمّد إهانتهم بل والتمثيل بهم:

فقد نقل المؤرّخون تعمّده إذلال ملوك البربر:...فسار إليها ثماني ليال من ودّان، فلما دنا منها أرسل، فدعاهم إلى الإسلام، فأجابوا، فنزل

([1]) البيان المغرب 15/1.

([2]) البيان المغرب 19/1.

([3]) فتوح مصر والمغرب 223.

منها على ستّة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه، **فأمشوه راجلا حتّى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعما، فجعل يبصق الدم**، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: **أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستّين عبدا**[1].

ونقلوا تعذيبه لملوك البربر بقطعه لآذانهم: فخلّف عقبة بن نافع جيشه هنالك، واستخلف عليهم عمر بن عليّ القرشي، وزهير بن قيس البلويّ، ثم سار بنفسه وبمن خفّ معه أربعمائة فارس وأربعمائة بعير، وثمانمائة قربة حتى قدم ودّان فافتتحها، وأخذ ملكهم، **فجدع أذنه**،فقال: لم فعلت هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك أدبا لك، إذا مسست أذنك ذكرته، **فلم تحارب العرب**[2].

وفي موقف آخر قطع أصابع بعض الملوك: فمضى أمامه على قصور كوّار فافتتحها، حتى انتهى إلى أقصاها، وفيه ملكها، **فأخذه فقطع إصبعه**، فقال: لم فعلت هذا بي؟ قال: أدبا لك، إذا أنت نظرت إلى إصبعك **لم تحارب العرب**، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا[3].

([1]) فتوح مصر والمغرب 222.

([2]) فتوح مصر والمغرب 222.

([3]) فتوح مصر والمغرب 223.

ولعلّ السبب الأساسي لثورة البربر عليه أو ما يعبّر عنها المؤرّخون بـ"ردّة البربر" هو إهانة عقبة لملوكهم وكبارهم لاسيما ثورة "كسيلة البربري" التي كان سببها الأساسي هو صنيع عقبة بن نافع!

قال في الاستقصا: كان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته هذه، **وكان يستهين به ويمتهنه** فأمره يوما بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة إلى غلمانه فأراده عقبة على أن يتولّاها بنفسه وانتهره، فقام إليها كسيلة مغضبا، وجعل كلّما دسّ يده في الشاة مسح بلحيته والعرب يقولون: ما هذا يا بربري؟ فيقول: هو أجير، فيقول لهم شيخ منهم: إنّ البربريّ يتوعّدكم، وبلغ ذاك أبا المهاجر وهو معتقل عند عقبة، فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله (ص) يستأنف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبدار عزّه حديث عهد بالشرك فستفسده، وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته فتهاون عقبة بقوله[1].

فالذي يظهر من مجموع النصوص التاريخيّة المتقدّمة أنّ المحرّك الأساسي لعقبة بن نافع كانت العصبيّة العربيّة وليس الدين الإسلامي، ولذلك كان ينظر للبربر نظرة دونيّة ويستهين بهم كما كان دأب العرب قبل الإسلام، بخلاف من تشرّب بمبادئ الدين الحنيف الذي يرسّخ

---

(1) الاستقصا 137/1.

مبدأ كرامة البشر والمساواة بينهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

هل دخل التشيّع تونس مع الفتوحات؟

ذكر بعض المهتمّين بالتاريخ أنّ التشيّع قد دخل للشمال الإفريقيّ وتحديدا إلى تونس مع دخول المسلمين في الفتوحات التي سميت بالإسلاميّة، وقد استدلّوا على ذلك بأمرين:

- مشاركة الحسنين (ع) في فتح إفريقيّة بحيث عرف الناس أهل بيت النبي (ص) وحقيقة ما جرى بعد وفاته (ص) من ظلم لهم وإقصاء لأبيهم فكان أن تشيّعوا لهم.
- وجود بعض الروايات والنصوص التي تثبت وجود شيعة في أواخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني وهي تحديدا فترة الفتوحات.

والجواب على هذا السؤال يستوجب علينا مناقشة ما استدلّ به

(1) بعد هذا السرد يمكنك أن تعرف لماذا أطلقت إحدى الجماعات الإرهابيّة على نفسها اسم "كتيبة عقبة بن نافع". فإنّ الغرض من ذلك إضفاء شرعيّة على عملهم بالتستّر بشخصيّة ضربت عليها هالة من القداسة في المتخيّل التونسي.

أصحاب هذه النظريّة لكي يكون القارئ على بيّنة من أمره:

أمّا بالنسبة لمشاركة الحسنين (ع) في الفتوحات، فإنّ المستند الوحيد لهذا الأمر هو ما ذكره ابن خلدون في تاريخه: ثم إنّ عبد الله بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، وأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند وعبد الله ابن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما، فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها، ثم إنّ عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمدّه فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به فجهّز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر **والحسن والحسين** وابن الزبير وساروا مع عبد الله بن أبي سرح[1].

وهذا النصّ يمكن مناقشته من عدّة جهات:

الأولى: من المعروف أنّ ابن خلدون قد توفي في بدايات القرن التاسع وتحديدا في سنة 808هـ، وهذه الحادثة قد حصلت في سنة 25هـ أي أنّنا أمام فارق زماني يتجاوز سبعة قرون، وهذا ما يجعلنا أمام سؤال

([1]) تاريخ ابن خلدون 128/2.

ملحّ: هل يمكن الاعتماد على ابن خلدون في هذا النقل دون أن يذكر سندا للحادثة أو يكون له سلف في ذلك!

فالاطمئنان لصحّة نقل ابن خلدون يتوقّف على وجود مصادر لما ذكره تتصل بالحادثة أو تكون قريبة العهد بذلك، ومن هنا فالسؤال المطروح: من أين نقل ابن خلدون هذه الحادثة؟

الثانية: بالرجوع إلى المصادر القديمة التي أرّخت لفتوح شمال إفريقيا وتحديدا تونس، فإنّنا لا نجد ذكرا للحسن والحسين (ع) في هذه الفتوح، وسأسوق لك بعض النماذج:

- "فتوح البلدان" للبلاذري، الذي ذكر فتح إفريقيّة مفصّلا وعدّ الصحابة الذين شاركوا في هذه الحملة ولم يذكر الحسن والحسين (ع) فيمن شارك[1].

- "طبقات علماء إفريقيّة" لأبي العرب التميمي المغربي المتوفى 333هـ الذي عقد بابا لذكر أسماء الصحابة الذين دخلوا إفريقيّة، ولم يذكر فيهم الحسن والحسين (ع).

- "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيّة" لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي المتوفّى بعد سنة 484هـ،

([1]) فتوح البلدان 317.

ذكر في كتابه فصلا حول من دخل إفريقيّة من أصحاب النبي (ص) ولم يذكر الحسن والحسين (ع).

- البيان المغرّب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المغربي المتوفّى سنة 695هـ، حيث نقل في كتابه التفاصيل الدقيقة للفتح الإسلامي لإفريقيّة ولم يشر من قريب ولا من بعيد إلى دخول الحسن والحسين (ع).

- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الأنصاري المعروف بالدباغ والمتوفى سنة 696هـ، عدّد في كتابه الصحابة الذين دخلوا القيروان وميّز بين الكبار والصغار منهم ولم يذكر فيهم الحسن والحسين (ع).

فعدم ذكر كلّ هذه المصادر لقضيّة مشاركة الحسنين (ع) في الفتوحات رغم اعتناء مؤلّفيها بتعداد الصحابة يجعلنا نشكّ في صحّة ما أورده ابن خلدون!

الثالثة: يظهر من بعض النصوص التاريخيّة كراهة الإمام علي بن أبي طالب (ع) لهذه الحرب وعدم موافقته عليها، فقد روى ابن أعثم الكوفي في فتوحه مشاورة عثمان لبعض الصحابة في قضيّة الفتح: فلمّا كان من غد خرج فدعا له **علي بن أبي طالب كرم الله وجهه** وطلحة بن

عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم من أصحاب رسول الله (ص)، فلمّا علم عثمان أنّهم قد اجتمعوا في المسجد خرج إليهم بعد طلوع الشمس، فشاورهم في أمر إفريقية حتى ارتفع النهار، **فكأنّهم كرهوا ذلك**[1].

ونحن لا نتوقّع أنّ مثل الحسن والحسين (ع) يخالفان أباهما في أمر خطير مثل هذا، خصوصا وأنّ رفض أهل البيت (ع) لهذه الحروب التوسعيّة كان أمرا معروفا ومشهورا، ومن يرجع لرواياتهم يجد أنّهم كانوا يعارضون فكرة نشر الإسلام بالسيف بل كانوا ينهون أتباعهم عن المشاركة:

دخل رجل من الشيعة على الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) فقال له: يا عبد الملك مالي لا أراك تخرج إلى هذه المواضع التي يخرج إليها أهل بلادك؟ قال:وأين؟ قال:جدة، وعبادان والمصيصة، وقزوين، فقلت : انتظارا لأمركم والاقتداء بكم، فقال : **إي والله لو كان خيرا ما سبقونا إليه**[2].

([1]) الفتوح 358/2.

([2]) الكافي 19/5.

وبهذا يتبيّن أنّ دعوى مشاركة الحسنين (ع) في الفتوحات هي غير صحيحة، إذ لا يوجد نصّ تاريخيّ معتبر يمكن الاعتماد عليه لإثباتها، وعليه فربط هذه الحادثة بدخول التشيّع أمر غير صحيح أيضا.

أمّا بالنسبة إلى الروايات الدالّة على وجود الشيعة: فلعلّ المراد منها ما رواه الطبريّ في دلائل الإمامة: سمعت أبا جعفر (ع) يقول لرجل من أهل إفريقيّة: ما حال راشد؟ قال: خلّفته صالحا يقرئك السلام ، قال: رحمه الله، قال: أو مات؟! قال: نعم رحمه الله، قال: ومتى مات؟قال: قبل خروجك بيومين، قال: لا والله، ما مرض ولا كانت به علّة، قال: وإنما يموت من يموت من غير علّة أكثر، فقلت: أيما كان من الرجال الرجل؟ فقال: **كان لنا وليّا ومحبّا من أهل إفريقية**[1].

وتقريب الاستدلال بها أنّ أبا جعفر المذكور هو محمد بن علي الباقر (ع) وهو الإمام الخامس من أئمّة الشيعة المولود سنة 57هـ والمتوفّى سنة 114هـ يسأل في هذا الخبر رجلا من أهل إفريقيّة عن آخر من نفس المنطقة ممّا يؤكّد دخول التشيّع فيها مبكّرا.

وهذا استدلال تامّ على فرض صحّة الرواية إلّا أنّ دخول التشيّع مبكّرا لا يعني ارتباطه بالفتوحات التي حصلت، إذ أنّ الفاتح هو

(1) دلائل الإمامة 227.

الجيش الأموي الذي فعل ما فعل بأهل بيت النبوّة:

فهو الجيش الذي قاتل علي بن أبي طالب (ع) في صفّين

وقاتل من بعده ولده الإمام الحسن (ع) حتى تنازل عن الخلافة!

وهو الجيش الذي قتل الإمام الحسين بن علي (ع) في موقعة كربلاء!

وهو الجيش الذي سبى نساء أهل بيت النبي (ع) وطاف بهم في الأرجاء!

فكيف يمكن أن يدّعى دخول التشيّع مع هذا الجيش؟!

نعم لعلّ جرائم هذا الجيش الأموي في حقّ البربر الذين كانوا يتوقون للإسلام جعلهم يبحثون في أمر هذا الدين، فاكتشفوا أنّ أهل بيت النبي (ص) يعارضون هذه الفتوحات، والأهمّ من هذا أنّهم يتعرّضون لنفس ما يتعرّض له البربر بحيث ولّد هذا الأمر نحوا من التعاطف معهم وسعيا للاصطفاف معهم في مواجهة جيش بني أميّة.

ومن هنا نستطيع أن نقول أنّ بداية التشيّع في إفريقيّة كان حالة تعاطف من البربر مع أهل بيت النبوّة لما أصابهم من هؤلاء "الفاتحين"، وهذا التعاطف قد بدأ يتحوّل شيئا فشيئا إلى ارتباط بهم لاسيما مع تمركز أئمّة أهل البيت (ع) في مكّة والمدينة ممّا يسهّل على الحجّاج إمكانيّة التواصل معهم والتعرّف عليهم عن قرب.

يبقى الأمر مجرّد احتمال، إذ لا توجد عندنا مصادر تاريخيّة تؤكّد هذا، لكنّه احتمال راجح جدّا إذا علمنا الحصار المطبق الذي ضرب على أهل بيت النبي (ص) ممّا يستوجب سريّة في تحرّكاتهم.

الخلاصة:

لا يوجد دليل على دخول التشيّع إلى تونس وبقيّة بلاد المغرب مع الفتوحات الإسلاميّة، خصوصا وقد تبيّن عدم تأييد أئمّة أهل البيت (ع) لمثل هذه الحروب، لكنّ هذا لا يمنع من تشيّع بعض الأفراد من البربر في هذه الفترة لأسباب ستتّضح في الفصل القادم.

الصفحة الثانية: البعثات الدعويّة

نبّهت ثورات البربر وانتفاضاتهم المتتالية عقلاء بني أميّة إلى أنّ الفتوحات لم تؤت أكلها، فشعوب البربر لم تسلم حقيقة وإنّما استسلمت تحت بريق سيوف العرب وحوافر خيلهم، ولذلك بدأ التفكير في الطريقة المثلى لترسيخ الإسلام في أوساطهم فجاءت فكرة "البعثات الدعويّة".

بعثة عمر بن عبد العزيز:

قام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة دعويّة لتعليم شعوب البربر تعاليم الإسلام، وقد أرّخ ابن عذاري لهذه البعثة حيث قال: وفي سنة 100 ولي إسماعيل بن أبي المهاجر أفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فكان خير أمير وخير وال، وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقيّة البربر بأفريقية على يده في دولة عمر بن عبد العزيز، وهو الذي علّم أهل أفريقية الحلال والحرام وبعث معه عمر عشرة من التابعين أهل علم وفضل منهم عبد الرحمن بن نافع وسعد بن مسعود التجيبي وغيرهما وكانت الخمر بأفريقية

حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون فبيّنوا تحريمها[1].

ونجد ذكرا لهذه البعثة في طبقات أبي العرب الذي قال: قد حدّثني فرات بن محمد، أنّ عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقّهون أهل إفريقيّة، منهم: موهب بن حي المعافري، وأقام بإفريقيّة حتّى مات بها، وحبان بن أبي جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور القرشي، مولاهم، وكان رجلا صالحا استعمله عمر بن عبد العزيز، ليفقّههم أيضا، وإسماعيل بن عبيد، مولى الأنصار، وهو صاحب سوق مسجد الأحباش، كذا، وهو الذي يقال له: تاجر الله[2].

ومن هنا يمكننا اعتبار هذه البعثة البداية الفعليّة للإسلام في أراضي إفريقيّة، ويكفيك دلالة على هذا أنّ حرمة الخمر التي تعتبر من بديهيّات التشريع الإسلامي لم تكن معروفة في تلك الأراضي حتّى بداية القرن الثاني!

البعثات السريّة:

تمثّل البعثة المذكورة آنفا البعثة الرسميّة الدينيّة لدولة بني أميّة، إلّا أنّ التاريخ قد حدّثنا عن بعثة أخرى مقاربة لهذه البعثة، وهي بعثة الشيعة

([1]) البيان المغرب 48/1.

([2]) طبقات علماء إفريقيّة 20.

رجلين من الدعاة إلى قبائل البربر لدعوتهم إلى التشيّع لأهل النبي (ص) واتباع تعاليمهم، وقد تطابقت النصوص على نقل هذا المقدار:

فقد نقل ابن الأثير في تاريخه: واتصلت أخباره بالشيعة الذين بالعراق فساروا إليه فكثر جمعهم وعظم بأسهم وأغاروا على من جاورهم وسبوا وجبوا الأموال وأرسل إلى من بالكوفة من ولد عبد الله القداح هدايا عظيمة، وكانوا أنفذوا إلى المغرب رجلين أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان، وقالوا لهم : **إنّ المغرب أرض بور فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر**؛ فسارا فنزل أحدهما بأرض كتامة ببلد يسمى مرمجنة والأخر بسوق حمار، فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما وحملوا إليهما الأموال والتحف فأقاما سنين كثيرة وماتا وكان أحدهما قريب الوفاة من الآخر[1].

وقال ابن خلدون: وكان شيعة هؤلاء العبيديين بالمشرق واليمن وإفريقية وسار بها إلى إفريقية رجلان يعرف أحدهما بالحلواني والآخر بالسفياني أنفذهما الشيعة إلى هنالك، وقالوا لهما **أنّ المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر** وسارا لذلك ونزلا أرض كتامة أحدهما ببلد يسمّى سوق حمار وفشت هذه الدعوة منهما في أهل

([1]) الكامل في التاريخ 31/8.

تلك النواحي من البربر وخصوصا في كتامة[1].

ونقل المقريزي نصّا مقاربا: واتصلت أخباره بالشيعة الذين بالعراق، فساروا إليه، وكثر جمعهم، وعظم بأسهم، وأغاروا على من جاورهم، وسبوا، وجبوا الأموال، وأرسل إلى من بالكوفة من ولد القدّاح هدايا عظيمة، وأوفدوا إلى المغرب رجلين: أحدهما الحلواني، والآخر أبو سفيان، وقالوا لهما: **إنّ المغرب أرض بور، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر**، فسارا ونزل أحدهما بأرض كتامة، فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف، فأقاما سنين كثيرة وماتا[2].

فهذه النصوص المتضافرة تشترك في:

- وجود بعثة دينيّة دعويّة من المشرق أريد بها تعريف البربر بمذهب أهل البيت (ع).
- أنّ هذه البعثة تتكوّن من داعيتين استقرّا بين البربر سنين طويلة وماتا بينهم.

---

(1) تاريخ ابن خلدون 361/3.

(2) اتعاظ الحنفاء 41/1.

- أنّ الرجل الأوّل يعرف بـ"الحلواني" والثاني بـ"أبي سفيان"[1].

إلّا أنّ النصوص المتقدّمة سكتت عن أمرين مهمّين جدّا أوّلهما تحديد تاريخ هذه البعثة ولو تقريبا، وثانيهما وهو الأهمّ تحديد الرأس المدبّر والمخطّط لهذه البعثة الدينيّة الشيعية، وهذا ما جعلنا نحاول تنقيب كتب التاريخ للبحث عن قرائن قد توصلنا لحلّ هذا الأمر.

وبالرجوع إلى كتب القاضي النعمان فقيه الفاطميين ومؤرّخ دولتهم نجد بعض الأمور التي يمكن الاستناد لها:

فقد أشار في بعض كتبه إلى تقدّم هذه البعثة على دعوة أبي عبد الله الشيعي بالمغرب حيث قال: ونبتدئ أنّه قدم إلى المغرب **من قبله مدّة طويلة** رجلان من أهل المشرق ويعرفان الأول بالحلواني، والثاني بأبي سفيان، فنزل كل واحد منهما بناحية[2].

والشاهد في كلامه قوله بـ"مدّة طويلة"إذ أنّ هذا التعبير مشعر ببعد الهوّة بين الطرفين وعدم الاتصال المباشر بين الدعوتين.

أضف إلى هذا أنّ هناك قرينة أخرى في بقيّة كلامه يمكنها أن تحسم

([1]) لم تذكر المصادر التاريخيّة الاسم الكامل لكلّ شخصيّة من هؤلاء إيغالا في السريّة، وما نسبه بعضهم للمقريزي في: اتعاظ الحنفاء" من أنّهما: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد، وأخوه أبو العباس محمد بن أحمد بن محمد محض اشتباه.

([2]) شرح الأخبار 413/3.

الجدل في هذه القضيّة وهي قول القاضي: فلمّا صارا إلى مرماجنة نزل أحدهما -وكان يعرف بأبي سفيان- بها بموضع يقال له: تالا في موضع بأرض مرماجنة، بنى فيه مسجد الروم، وتزوج امرأة وكان له عبد وأمة، وكان عابدا عالما يصوم النهار ويقوم الليل ملازما لمسجده، وكان أهل تلك الناحية قد عرفوا وكان يروي **عن أبي عبد الله جعفر بن محمد** عليه السلام[1].

فهذا التعبير يفهم منه أنّ "أبا سفيان" كان معاصرا للإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) والذي توفي في سنة 148هـ أي قبل ولادة مهدي الفاطميين بأكثر من قرن حيث ذكرت المصادر التاريخيّة أنّ ولادة هذا الأخير كانت في حدود سنة 260هـ.

والأوضح من كلّ هذا ما ذكره في كتابه "افتتاح الدعوة" حيث أرّخ لهذه البعثة بكلّ دقّة فقال: قدم إلى المغرب **في سنة خمس وأربعين ومئة** رجلان من المشرق قيل **إنّ أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام بعث بهما** وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمّة من آل محمد صلوات الله عليهم وينشرا فضلهم، وأمرهما أن يتجاوزا حدود إفريقيّة إلى حدود

---

(1) شرح الأخبار 414/3.

البربر ثم يفترقان فينزل كلّ واحد منها ناحية...[1].

ومن هنا فإنّ ابن خلدون صرّح في موضع آخر أنّ رأس هذه البعثة هو الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، قال: وكان أصل ظهورهم بإفريقيّة دخول الحلواني وأبي سفيان من شيعتهم إليها، أنفذهما **جعفر الصادق** وقال لهما: بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر[2].

فبهذا يتبيّن أنّ هناك بعثة دينيّة أخرى كانت في سنة 145 هـ، أرسلها الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بغرض نشر التشيّع في بلاد المغرب وتعريف أهلها بمدرسة أهل البيت (ع).

هل كانت بعثة "عبيديّة"؟

إنّ التفاصيل المتقدّم ذكرها تجعلنا أمام حقيقة غفل أو تغافل عنها المؤرّخون وهي أنّ هذه البعثة المذكورة لا علاقة لها من قريب و لا من بعيد بدعوة العبيديّين وذلك لعدّة قرائن:

الأولى: الفارق الزمني الكبير بين هذه البعثة وبين حركة أبي عبد الله

([1]) افتتاح الدعوة 23.

([2]) تاريخ ابن خلدون 31/4.

الشيعي حيث حدّدها القاضي النعمان بقوله: فكان بين دخولهما المغرب ودخول صاحب البذر وهو أبو عبد الله **مائة وخمس وثلاثون سنة**[1].

الثانية: أنّ الدعوة الإسماعيليّة الباطنيّة لم تبدأ بعد في هذا التاريخ، فانقسام الشيعة إلى موسويّة وإسماعيليّة حصل بعد سنة 148هـ، وتبلور فكرة الإمام المكتوم عند الإسماعيليّين كان متأخرا كثيرا عن هذا التاريخ.

الثالثة: أنّ فكرة المسير إلى المغرب لم يكن مخطّطاً لها مسبقا، فلقاء داعية الفاطميين أبو عبد الله الشيعي بأهل كتامة كان صدفة في أيام الحجّ، يشهد بذلك ما نقله القاضي النعمان في افتتاح الدعوة: ووصل أبو عبد الله مع جملة الحجيج من أهل اليمن إلى مكّة، فلمّا قضى الناس حجّهم واستقرّوا بمنى جعل أبو عبد الله يمشي بمنى، **فمرّ على جماعة من رجال كتامة ممن حجّ تلك السنة، وهم في رحالهم وفيهم من الشيعة** الذين كانوا تشيّعوا بسبب الحلواني رجلان: حريث الجيملي وموسى بن مكارمة، فسمعهما أبو عبد الله يذكران لأصحابهما فضائل علي عليه السلام[2].

([1]) افتتاح الدعوة 24.

([2]) افتتاح الدعوة 29.

والأهم من هذا ما ذكره لاحقا: وكان أبو عبد الله يسألهم في خلال حديثه عن بلدهم وأحوال أهله فيخبرونه بما يرى أنّه موضع لما يريده، وكان مما سألهم عنه أنّه قال لهم: كيف طاعتكم للسلطان وحكمه عليكم؟ فقالوا: ماله علينا من طاعة ولا حكم أكثر من أنّنا نقول إنّه سلطان، قال: وكم بينكم وبين موضعه؟ قالوا: مسيرة عشرة أيام[1].

فيظهر من سياق كلامه –الذي أعرضنا عن نقله لطوله– أنّ الرجل لا يعلم شيئا عن بلاد المغرب وإنّما اكتشف صدفة أنّها أرض خصبة لنشر دعوتهم وإقامة دولتهم فانتهز الفرصة واستغلّ الظروف الملائمة.

وبهذا نعلم أنّ هذه البعثة الدينيّة كانت من أئمّة أهل بيت النبي (ص)وتحديدا الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ولم تكن لها علاقة من قريب ولا من بعيد بالدعوة العبيديّة، نعم ما حصل هو أنّ هذه الدعوة السريّة قد ركبت الموجة فيما بعد واستغلّت تشيّع البربر في هذه المناطق وأوهموهم أنّ صاحبهم هو المهدي المنتظر الذي بشّر به النبي (ص) والذي كان ينتظره الشيعة.

([1]) افتتاح الدعوة 30.

خارطة انتشار التشيّع:

بحسب النصوص المتقدّمة فإنّ أبا سفيان قد نزل بمدينة "مرماجنة" والتي تعرف اليوم بمدينة "تالة" وبدأ دعوته فيها، ثم توسّع الأمر ليشمل أهل منطقة "الأربس" وهي منطقة السرس وما جاورها اليوم[1]، أمّا الرجل الثاني وهو الحلواني فقد استقرّ في سوجمار وهي منطقة من الجزائر وقام بدعوة أهلها لمذهب أهل البيت (ع)، والملفت للنظر أنّ اختيار هذه المناطق لم يكن وليد اللحظة بل الظاهر أنّه كان أمرا مخطّطا له بدقّة كما يفهم من توجيهات الإمام الصادق (ع): وأمرهما أن يتجاوزا إفريقيّة إلى حدود البربر ثم يفترقان فينزل كلّ واحد منهما ناحية[2].

ومن ينظر إلى خارطة انتشار قبائل البربر يجد أنّ اختيار هذه المناطق هو الأمثل إذ اضطلع كلّ واحد منهما بجزء من قبائل البربر الكبيرة ككتامة ونفزاوة وسماتة وغيرها، وهذا ما يجعلنا أمام فرضيّة أخرى تطرح نفسها بقوّة وهي أنّ هذه البعثة الدعويّة قد سبقتها بعثات استطلاعيّة لاكتشاف المكان ومعرفة الطريقة المثلى للتعامل مع أهلها،

([1]) افتتاح الدعوة 23.

([2]) افتتاح الدعوة 23.

وهذا ما سيرجعنا إلى النظريّة الأولى التي تحدّثنا عنها وهي دخول التشيّع مبكّرا لهذه المناطق ولو بنحو الأفراد لا الجماعات، إمّا عن طريق الاحتكاك المباشر بأهل بيت النبي (ص) في مواسم الحجّ أو بواسطة هذه البعثات الاستطلاعيّة.

ولو أضفنا إلى ما تقدّم من قرائن على هذا مصاهرة الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) للبربر واقترانه بأمة بربريّة اسمها "حميدة المصفّاة" بل وأنجب منها الإمام اللاحق في النسق الإمامي وهو الإمام موسى الكاظم (ع)، فإنّ الصورة ستكون واضحة جليّة حينها، إذ إنّ الارتباط بين أهل البيت (ع) والبربر بدأ مبكّرا جدّا ولم تكن هذه الدعوى إلّا تجسيدا لهذا الارتباط وتوطيدا له.

هل أتاك حديث "الكوفة الصغرى":

أشار القاضي النعمان إلى اتّساع رقعة انتشار التشيّع عن طريق الرجلين، فقد تجاوز الشمال الغربي لتونس ليصل إلى أقصى جنوب التراب التونسي وتحديدا إلى مدينة نفطة، قال: ويقال إنّه كان أيضا **سبب تشيّع أهل نفطة** وذلك أنّ قوما منهم كانوا يختلفون بالتمر إلى تلك الناحية ويشترون القمح منها وكانوا يأتونه ويسمعون منه

ويأخذون عنه[1].

وهذا النص يدفعنا للحديث عن هذه المدينة التي عرفت تاريخيّا باسم "الكوفة الصغرى" نتيجة انتشار التشيّع بين أهلها بحيث أصبحت مثل مدينة الكوفة العراقيّة حاضرة التشيّع:

فقد قال البكري عند تعريفه لهذه المدينة: هي مدينة مبنيّة بالصخر عامرة آهلة بها جامع ومساجد وحمّامات كثيرة، وهي كثيرة المياه السائحة، وشرب جميع بلاد قسطيلية بوزن إلّا نفطة فإنّ شربها جزاف، **وجميع أهلها شيعة وتسمّى الكوفة الصغرى**[2].

بل الأعجب من ذلك أنّ هذه المدينة تحوّلت إلى مركز لنشر التشيّع في بقيّة بلدان المغرب العربي، فهذا ابن حزم يحدّثنا عن حقيقة تاريخيّة لعلّها تؤكّد لنا سبب وسم نفطة بـ"الكوفة الصغرى" حيث يقول: ومنهم– أهل السوس الأقصى– طائفة تسمى النحلية، نسبوا إلى الحسن بن علي بن ورصند النحلي،**كان من أهل نفطة من عمل قفصة وقسطيلية من كور إفريقية** ثم نهض هذا الكافر إلى السوس في أقاصي بلاد المصامدة فأضلّهم وأضلّ أمير السوس أحمد بن إدريس بن يحيى بن عبد الله بن

([1]) افتتاح الدعوة 23.

([2]) المسالك والممالك 743/2.

الحسين بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فهم هنالك كثير سكان في ربض مدينة السوس معلنون بكفرهم وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين[1] لا يأكلون شيئا من الثمار زبل أصله ويقولون أنّ الإمامة في ولد الحسن دون ولد الحسين[2].

وهذا النص يحوي عدّة أمور تستوجب الوقوف عندها:

الأمر الأوّل: هو ما نحن بصدد إثباته من تحوّل نفطة إلى مركز من مراكز التشيّع في المغرب العربي، إذ أنّ تشيّع أهل السوس الأقصى كان بسبب داعية من بلاد نفطة لا من المشرق كما هو المعتاد، وبالتالي فنحن أمام انتقال من حالة التلقّي إلى الإلقاء ومن الانفعال إلى الفعل.

الأمر الثاني: عبّر ابن حزم عن الداعية المذكور باسم "الحسين بن علي بن ورصند النحلي"، في حين أنّ ابن حوقل عبّر عنه بـ"ابن ورصند"[3]، والبكري بـ"محمّد بن ورسند"[4]، وسمّاه ابن أبي زرع بـ" علي بن عبد الله البجليّ"[5]، وهذا الاختلاف يمنع من تحديد الهويّة الحقيقيّة لهذا الداعية.

([1]) لا شكّ أنّ هذا الكلام من تجنّيات ابن حزم فصلاة الشيعة لا تختلف عن صلاة المسلمين كما هو معروف في كتب الفقه.

([2]) الفصل في الملل والنحل 183/4.

([3]) صورة الأرض 91/1.

([4]) المسالك والممالك 852/2.

([5]) الأنيس المطرب 110.

نعم يمكن الاطمئنان إلى أنّ ما ذكره ابن حزم من تلقيب الرجل بـ"النحلي" والنسبة إليه بـ"النحليّة" هو تصحيف لـ"البجلي" والنسبة إليه "بجليّة"، والذي يجعلنا نزداد اطمئنانا لهذا الترجيح هو تواجد قبيلة بجيلة في تونس بل وتشيّعها كما أشار لذلك ابن خلدون في بعض طوايا تاريخه[1].

الأمر الثالث: حسم مسألة ارتباط التشيّع في تونس وباقي بلدان المغرب بالحركة العبيديّة الإسماعيليّة، فقد نصّ المؤرّخون على أنّ هذه الطائفة الموسومة بـ"البجليّة" قد كانوا موسويّة[2]:

- فقد قال ابن حوقل في وصف هذه الطائفة: وأهل السوس فرقتان مختلفتان مالكيون أهل سنّة **وموسويّون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر** من أصحاب عليّ بن ورصند[3].

- وذكر الإدريسي في نزهته: وأهل السوس فرقتان فأهل مدينة تارودنت يتمذهبون بمذهب المالكية من المسلمين وهم

(1) تاريخ ابن خلدون 42/4.

(2) والمقصود بالموسويّة هو اعتقادهم بإمامة موسى الكاظم بعد وفاة أبيه الإمام جعفر الصادق بخلاف الإسماعيليّة الذين قالوا بإمامة أخيه إسماعيل، وهذا الأمر يؤكّد لنا اشتباه ابن حزم الذي صرّح في كلامه بأنّهم يعتقدون الإمامة في ولد الحسن لا في ولد الحسين إذ العكس هو الصحيح.

(3) صورة الأرض 91/1.

حشوية وأهل بلد تويوين **يقولون بمذهب موسى بن جعفر**[1].

- وتبعهما ياقوت الحموي في بلدانه: وأهلها فرقتان يقال **لإحداهما الموسوية** من أصحاب ابن ورصند[2].

والأهمّ ممّا تقدّم ما صرّح به البكري من كون هذا "البجليّ" من أهل نفطة قد ذهب إلى أهل السوس الأقصى وشيّعهم قبل قيام الفاطميين، قال في مسالكه: وهم كلّهم روافض ويعرفون بالبجليّين، **نزل بين ظهرانهم رجل بجليّ من أهل نفطة قسطيلية قبل دخول أبي عبد الله الشيعي إفريقية** يقال له محمّد بن ورسند[3].

وهذا النصّ يقطع الخلاف في قضيّة تشيّع أهل السوس[4] بل وكلّ أهل المغرب حيث تبيّن أنّ التشيّع كان مرتبطا بأئمّة أهل البيت (ع) ولم يكن حركة سياسيّة غرضها الحكم والكرسي بل كان حركة دعويّة يراد

([1]) نزهة المشتاق 228/1.

([2]) معجم البلدان 225/1.

([3]) المسالك والممالك 852/2.

([4]) بقي أهل هذه المناطق على تشيّعهم إلى حين قيام دولة المرابطين وتحديدا سنة 448هـ حيث هاجموا هذه المنطقة وأبادوا من فيها، قال ابن أبي زرع الفاسي: وكانت بتارودانت قوم من الروافض يقال لهم البجليّة منسوبين إلى عليّ بن عبد الله البجليّ الرافضيّ...فقاتلهم الأمير أبو بكر وعبد الله بن ياسين حتّى فتح مدينتهم عنوة وقتل بها من الروافض خلق كثير فرجع من بقي منهم إلى السنّة وأخذ أموال من قتل منهم فجعل فيها للمرابطين وأظهر الله المرابطين وأعلى كلمتهم (الأنيس المطرب 110).

منها إيصال الإسلام الصحيح لهذه الشعوب التي اضطهدت تحت وطأة سلطان إسلام مزيّف.

الخلاصة:

كان لأئمّة أهل البيت النبوي (ع) الدور الكبير في نشر التشيّع في بلاد المغرب، وكانت هذه الحركة هي بمثابة البذرة التي غرسها الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) وتعّهدها من جاء بعده بالسقي في انتظار صاحبها الذي سنعرفه في الفصل القادم.

الصفحة الثالثة: الأدارسة

لا شكّ أنّ من أبرز محطّات تاريخ بلاد المغرب قيام دولة لأهل البيت (ع) في المغرب الأقصى والتي عرفت فيما بعد بدولة "الأدارسة" حيث ظهرت على ساحة الأحداث وفرضت وجودها منذ سنة 172هـ على يد إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن عليّ بن أبي طالب (ع).

لغز التأسيس:

إنّ أهمّ سؤال حاول المحقّقون والمحلّلون الإجابة عليه هو: كيف استطاع إدريس المطارَد من العبّاسيين الوصول إلى المغرب وتأسيس إمارة قويّة هزّت عروش بني العبّاس في وقت قصير جدّا؟

كلّ ما قيل في الإجابة على هذا السؤال هو مجرّد تحليلات وتخمينات لا تقوم على أسس علميّة رصينة ولا تصمد أمام النقد العلمي ولذلك سنطوي عنها كشحا ولن نتعرّض لها، بل سنركّز على حلّ هذا اللغز وهو: سرّ استتباب الأمر لإدريس.

والجواب يكمن ببساطة في ما ذكرناه في الفصل السابق وهو قول الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): "بالمغرب أرض بور فاذهبا

واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر"[1]، فإدريس لم يبدأ من الصفر بل وجد أرضا مهيّأة ومستعدّة لمثل هذا الحراك حيث استطاع الدعاة الأوائل نشر التشيّع في قبائل المغرب وربط الناس بأهل بيت النبي (ص)، وهذا ما تؤكّده عدّة نصوص تاريخيّة أهمّها ما ذكره الرازي في أخبار فخّ الذي أشار إلى سبب اختيار إدريس التوجّه لبلاد المغرب حيث قال له أخوه يحيى: يا أخي إنّ لنا راية في المغرب تقبل في آخر الزّمان فيظهر الله الحقّ على أيدي أهلها فعسى أن تكون أنت أو رجل من ولدك[2].

وقد يخطر ببالك هذا السؤال، من أين علم يحيى بوجود راية في بلاد المغرب لأهل البيت (ع)؟ والجواب هو أنّ هذا الرجل –يحيى بن عبد الله– كان ربيب الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، وقد نصّ أبو الفرج الأصفهاني على هذه الحقيقة في مقاتلته، قال: كان جعفر بن محمد قد ربّى يحيى بن عبد الله بن الحسن، فكان يحيى يسميه حبيبي، وكان إذا حدث عنه قال حدثني حبيبي جعفر بن محمد[3].

([1]) تاريخ ابن خلدون 31/4.

([2]) أخبار فخ 164.

([3])مقاتل الطالبيين 309.

وهذا القرب هو الذي خوّل له معرفة ما يدور في بلاد المغرب لكون الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) صاحب الدعوة السريّة التي ذكرناها في الفصل السابق، بل لعلّه كان قد سمع منه بعض البشارات الغيبيّة عمّا سيجري في المستقبل على هذه الأرض، خصوصا وأنّ القاصي والداني يشهد بأنّ جعفر الصادق قد أخبر بكثير من المغيّبات، قال ابن خلدون:...وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته[1].

فمن هنا يعلم أنّ توجّه إدريس ناحية المغرب لم يكن وليد الظروف الآنيّة التي مرّ بها بحيث التجأ لتلك البلاد التجاء، بل هو وليد تخطيط دقيق من أهل البيت (ع) الذين جهّزوا هذه الأرض البور وحرثوها لكي يأتي صاحب البذرة، فكان من إدريس أن بذر بذوره في هذه الأرض فأنبتت نباتا حسنا وأثمرت ثمرا طيّبا.

فمن الخطإ اعتبار دولة الأدارسة وليدة سنة 172هـ، بل يمكننا اعتبار بدايتها الحقيقيّة سنة 145هـ مع جهود البعثة الدينيّة التي بعثها

([1]) تاريخ ابن خلدون 200/1.

الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، إذ تعتبر ثلاثون سنة مدّة مثاليّة لإعداد جيل كامل مرتبط بأهل البيت ارتباطا وثيقا بحيث التفّ هذا الجيل الجديد حول أوّل راية علويّة رفعت في بلاد المغرب.

والعجب من بعض الأقلام كيف اعتبرت صاحب البذر هو "أبو عبد الله الشيعي" داعية الفاطميين أو "عبيد الله المهدي" خليفتهم الأوّل رغم أنّ المدّة تزيد عن قرن ونصف، وفي المقابل لم يجعل إدريس صاحبها رغم قرب زمانه؟!

هل كان إدريس شيعيّا؟

لعلّ المعركة الحقيقيّة في هذا البحث هو إثبات تشيّع إدريس حيث انقسم الباحثون في هذه المسألة على رأيين:

- قسم يذهب إلى أنّه كان شيعيّا
- وقسم آخر يصرّ على سنيّته ويتعصّب لها

ولاشكّ أنّنا من أنصار القسم الأوّل الذي يصرّ على كون إدريس شيعيّا بالمعنى الأخصّ للتشيّع وعندنا على ذلك أدلّة وشواهد كثيرة يمكن الركون إليها والاطمئنان لها:

الدليل الأوّل: قرّر أهل السنّة قاعدة اعتبروها أصلا من أصولهم

وهي عدم جواز الخروج على الحاكم وإن كان ظالما جائرا بل تجب طاعته والانقياد إليه، ومن هنا تضافرت كلماتهم في هذا الأمر:

فقد قال أحمد بن حنبل: ولا يحلّ قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة[1].

وقال الأشعري في إبانته: ونرى الدعاء لأئمّة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة، وندين بإنكار الخروج بالسيف، وترك القتال في الفتنة[2].

وقال الطحاوي في عقيدته: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة[3].

وقد ثبت تاريخيّا أنّ إدريس قد خرج على العباسييّن وشارك في موقعة فخّ فنحن أمام احتمالين:

- إمّا أن يكون إدريس سنيّا إلّا أنّه خالف هذا الأصل

([1]) أصول السنّة 46.

([2]) الإبانة 31.

([3]) العقيدة الطحاوية 428.

الأصيل من أصولهم فيكون بذلك جاهلا بالمذهب أو يكون على علم بذلك فيعدّ مبتدعا كما نصّ على ذلك أحمد بن حنبل أو ضالّا كما قال حكم الأشعريّ!

- وإمّا أن يكون خروجه كاشفا على عدم سنيّته من الأساس فيكون من ضمن المذاهب التي كانت ترى الخروج بالسيف في ذلك الوقت وهم الخوارج والشيعة لاسيما الزيديّة منهم.

ولا نظنّ عاقلا يقبل الاحتمال الأوّل الذي يلزم منه نسبة الجهل أو الابتداع أو الضلال لإدريس الذي عرف بعلمه وفقهه وورعه فلا يبقى إلّا الاحتمال الثاني وهو أنّه لم يكن سنيّا أصلا، وحيث أنّه لا يمكن أن يكون خارجيّا يكفّر جدّه عليّ أو يفسّقه[1]، فيتعيّن كونه من الشيعة.

الدليل الثاني: إذا نظرنا في أحداث ثورة فخ والتي كان إدريس من أهمّ المشاركين فيها والناجين منها نجد عدّة قرائن صريحة تدلّ على أنّ هذه الثورة كانت ثورة شيعيّة بامتياز، ورعاية للاختصار سنذكر قرينة واحدة لا تقبل التأويل والتحريف:

فقد روى أبو الفرج الأصفهاني: ثم وجّه فجاءه يحيى وسليمان

(1) من أصول مذهب الخوارج تخطئة الإمام عليّ بن أبي طالب في قبوله التحكيم ومقاتلته لأهل النهروان، ولذلك فسّقه بعضهم وكفّره البعض الآخر.

وإدريس بنو عبد الله بن الحسن وعبد الله بن الحسن الأفطس وإبراهيم بن إسماعيل طباطبا وعمر بن الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن الحسن وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ووجّهوا إلى فتيان من فتيانهم ومواليهم، فاجتمعوا ستة وعشرين رجلاً من ولد علي، وعشرة من الحجاج، ونفر من الموالي، فلما أذّن المؤذن للصبح دخلوا المسجد ثم نادوا: «أحد، أحد» وصعد عبد الله بن الحسن الأفطس المنارة التي عند رأس النبي (ص) عند موضع الجنائز فقال للمؤذن: أذّن **بحيّ على خير العمل**، فلما نظر إلى السيف في يده أذّن بها[1].

وموضع الشاهد هو إضافة هذه الفقرة في الأذان وهي "حيّ على خير العمل" فممّا لا خلاف فيه أنّ هذه الإضافة هي ممّا التزم بها الشيعة ونصّوا عليها في كتبهم الفقهيّة ولازالوا يذكرونها في أذانهم وإقامتهم إلى يومنا هذا، بخلاف أهل السنّة الذين لم يقل أحد منهم بأنّها جزء من أذانهم!

قال الشريف المرتضى: وممّا انفردت به الإماميّة أن تقول في الأذان

([1]) مقاتل الطالبيين 375.

والإقامة بعد قول(حيّ على الفلاح): حي على خير العمل، والوجه في ذلك: إجماع الفرقة المحقّة عليه[1].

فهذه الفقرة تدلّ على أنّ تشيّع هؤلاء لم يكن مجرّد تشيّع بالمعنى السياسي أي محبّة أهل البيت عليهم السلام ونصرتهم سياسيّا بل كان تشيّعا عقديّا فقهيّا حقيقيّا.

الدليل الثالث: من الأمور التي يمكن الاستدلال بها أيضا أحداث هجرة إدريس إلى المغرب، حيث ذكر لنا المؤرّخون بعض القضايا المهمّة التي لابد من الوقوف عندها.

من هذه القضايا ما ذكروه في إقامة إدريس في مصر:

قال ابن أبي زرع: وأمّا إدريس فإنّه لمّا قتل أخوه وشيعته فرّ بنفسه مستترا في البلاد يريد المغرب، فسار من مكّة حتّى وصل مصر ومعه مولاه اسمه راشد، فدخلها والعامل عليها للمهدي علي بن سليمان الهاشمي، فبينما هو إدريس ومولاه راشد يمشيان في شوارعها ويجولان بطرفها إذ مرّا بدار حسنة البناء والهيئة، فوقفا ينظران إليها ويتأملان حسن بنائها وإحكام إتقانها، وإذا بصاحب الدار قد خرج وسلّم عليهما، فردّا عليه السلام، فقال لهما: ما الذي تنظران من هذه الدار؟

---

(1) الانتصار 137.

فقال راشد: يا سيدي إنّه أعجبنا حسن بنائها وإحكام إتقانها وشكلها، قال: وأظنّكما غريبين عن هذه البلاد، قال راشد: جعلت فداك، إنّ الأمر كما ذكرت، قال: من أيّ الأقاليم أنتما؟ قال: من الحجاز، قال: من أيّ بلدة؟ قال: من مكّة، قال: وأخالكما من شيعة الحسنيين الفارين من وقعة فخّ...،فقال لهما: لتطمئنّ نفوسكما وتسكن روعتكما، فإنّي من شيعة أهل البيت ومواليهم وأوّل من كتم سرّهم وستر أمرهم وبذل جهده في حقّهم، فلا تخافا ولا تحزنا فأنتما من الآمنين[1].

وموضع الشاهد أنّ الرجل الذي نزلا عنده كان شيعيّا مواليا لأهل بيت النبي (ص)، فلو كان إدريس سنيّا بالمعنى المصطلح فلماذا اعتبر صاحب البيت كونه شيعيّا أمرا مطمئنا لإدريس؟ لاشكّ أن السبب في ذلك هو أنّ إدريس كان شيعيّا ولذلك يعتبر تشيّع صاحب البيت عامل طمأنينة له.

نعم قد يعترض أحدهم بقوله أنّ مفردة "تشيّع" كانت تطلق على كلّ محبّ لأهل البيت النبوي (ص) فتشمل حتّى أهل السنة المتعاطفين معهم فلا دلالة في هذا النص على المدّعى.

والجواب أنّ هذا الاعتراض يندفع بملاحظة رواية ابن الفقيه لهذه

([1]) الأنيس المطرب بروض القرطاس 7.

الحادثة حيث قال: فوقع بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى المنصور -**وكان رافضيّا**- فحمله على البريد إلى أرض المغرب[1].

والأصرح منه نقل الطبري في تاريخه: أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب من وقعة فخ في خلافة الهادي فوقع إلى مصر، وعلى بريد مصر واضح مولى لصالح بن أمير المؤمنين المنصور **وكان رافضيا خبيثا** فحمله على البريد إلى أرض المغرب[2].

فالتعبير بكون واضح "رافضيّ" من شأنه رفع كلّ إشكال حول هذا الدليل، لأنّ هذا المصطلح لا يطلق إلّا على من كان شيعيّ المذهب بالفعل لا على مجرّد المحبّة والمودّة لأهل البيت النبوي (ص)، وبالتالي فالشاهد تام وهو دليل جيّد على تشيّع إدريس.

الدليل الرابع: نقل صاحب "أخبار فخّ" رسالة من إدريس إلى أهل مصر حوت جملة من الأمور التي يحسن نقلها:

فقد قال فيها: أيّها الناس إنّ الله ابتعث محمدا (ص) بالنبوّة وخصّه بالرسالة وحباه بالوحي، فصدع بأمر الله وأثبت حجّته وأظهر دعوته، وإنّ الله جلّ ثناؤه، خصّنا بولادته **وجعل فينا ميراثه، ووعده فينا وعدا**

(1) كتاب البلدان 133.

(2) تاريخ الطبري 416/6.

سيفي به، فقبضه الله إليه محمودا لا حجّة لأحد على الله ولا على رسوله[1].

وهذا الكلام صريح فيما يعتقده الشيعة من وراثة أهل البيت (ع) للنبي (ص) وأولويّتهم على غيرهم في القيام بأمور المسلمين.

وقال:ولم نملّ من دفع الجور طرفة عين من نصحنا لأمّتنا، والدّعاء إلى سبيل ربّنا جلّ ثناؤه، فكان ممّا خلفته أمّته فينا أن سفكوا دماءنا وانتهكوا حرمتنا وأيتموا صغيرنا وقتلوا كبيرنا وأثكلوا نساءنا وحملونا على الخشب، وتهادوا رؤوسنا على الأطباق، فلم نكلّ ولم نضعف، بل نرى ذلك تحفة من ربّنا جلّ ثناؤه، وكرامة كرمنا بها؛ فمضت بذلك الدهور واشتملت عليه الأمور، وربّي منّا عليه الصغير، وهرم عليه الكبير[2].

لو كان المتكلّم سنيّا لذكر الخلافة الراشدة وسيرة الشيخين، لكنّنا نجد إدريس انتقل مباشرة من وفاة النبي (ص) إلى ذكر ما جرى على أهل البيت (ع) دون فاصل ممّا يشعر بعدم اعتقاده بكلّ خلافة كانت بعد رسول الله (ص).

([1]) أخبار فخّ 321.

([2]) أخبار فخّ 322.

وقال: حتى ملك **الزنديق أبو الدوانيق**، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ويل لقريش من زنديقها، يحدث أحداثا يغير دينها ويهتك ستورها ويهدم قصورها ويذهب سرورها»، فسام أمّتنا الخسف، ومنعهم النصف، وألبسهم الذل وأشعرهم الفقر[1].

ففي هذا المقطع يتجلّى أمر مهمّ جدًا وهو أنّ الخلاف بين الحسنيين وبني العباس لم يكن مجرّد خلاف سياسي بل هو أعمق من ذلك بكثير والدليل عليه وصفه لأبي جعفر المنصور بـ"الزنديق"، وهذا الوصف يطلق عادة على من عنده انحراف عقديّ لا مجرّد اختلاف سياسيّ.

وبالنهاية من يقرأ هذه الرسالة بدون أن يعرف كاتبها سيصل إلى هذه النتيجة وهو أنّ الكاتب متشبّع بأدبيّات الخطاب الشيعي بل هو شيعيّ صرف.

الدليل الخامس: لو قمنا بعمليّة استقراء لكلّ النصوص الواردة عن إدريس سواء قبل وصوله لبلاد المغرب أو بعد أن أسّس دولته إلى حين اغتياله نجد أنّه لم يذكر الصحابة لاسيما الشيخين البتّة.

فقد حفظ لنا التاريخ رسالتين من رسائله واحدة لأهل مصر وأخرى للبربر، كما حفظ لنا بعض خطبه وكلماته المتناثرة وكلّها تدور

([1]) أخبار فخّ 322.

حول ذكر الله جلّ جلاله والنبي (ص) وأهل بيته (ع) ولم يتطرّق لا من قريب ولا من بعيد لذكر أحد من الصحابة، رغم أنّ أدبيات الخطاب السنّي يقوم على ذكرهم وتعظيمهم وحثّ الناس على السير بسيرتهم، فكيف لا يتطرّق لهم مثل إدريس؟!

الدليل السادس: بالإضافة إلى ما تقدّم في الدليل الخامس فإنّ هناك أمرا ملموسا يؤكّد ما قلناه وهي عملة دولة الأدارسة حيث نقش على الجهة الأولى منها: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وعلى الجهة الثانية: محمد رسول الله، وفي كلا الجهتين نقش اسم علي بن أبي طالب (ع) دون باقي الصحابة والخلفاء[1].

وهذا الأمر يؤكّد خصوصيّة الإمام علي (ع) على باقي الخلفاء والصحابة، وهذه الخصوصيّة لا وجود لها إلّا في المذهب الشيعي.

الدليل السابع: إذا نظرنا إلى الخطّة التي وضعها الرشيد لاغتيال إدريس نجد أنّها ترتكز على اختيار شخص يكون محلّ ثقة واطمئنان عند إدريس، وقد كان هذا الشخص هو: سليمان بن جرير

فقد نقل صاحب "أخبار فخّ" قصّة اغتيال إدريس مسندة حيث قال: فحدّثني أبو عبد الله أحمد بن عيسى بن زيد قال: كنت عند عمّي

(1) توجد هذه العملة في متحف النقود التابع لبنك المغرب بالرباط برقم: 991.

الحسين بن زيد بمنى في مضربه، إذ جاءه جماعة من البربر من أهل المغرب من عند إدريس، فجلسوا ناحية وجاء رجل منهم إلى الحسين فسلّم عليه وأكبّ عليه فناجاه طويلا، ثم إنّ الرجل خرج وقال لنا عمّي:أتدرون من هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا رجل من أهل المغرب من عند إدريس، قال لي: جاء رجل من عندكم يقال له سليمان بن جرير، فكان مع إدريس فخالفه في شيء، ودخل إدريس إلى الحمّام، فلما خرج أرسل إليه سليمان بسمكة، فحين أكل منها أنكر نفسه وقال: بطني،أدركوا سليمان في منزله، فطلب سليمان في منزله فلم يوجد، فسألناه عنه فقالوا: قد خرج، فأعلمناه فقال: أدركوه فردّوه، قال: فأدركناه فامتنع علينا فقاتلناه وقاتلنا، فضربناه على وجهه ضربة بالسيف، وضربناه على يده فقطعنا إصبعه وفاتنا هربا، ثم قال لنا الحسين بن زيد: رأيتم هذا الأثر؟قال أحمد بن عيسى:رأيته مضروبا على وجهه شبيها بما وصف البربري، وأومأ أحمد بن عيسى من حد موضع السجود إلى الحاجب،ورأيناه وفي يده ضربة قد قطعت إصبعه الإبهام؛ قال أحمد بن عيسى:وهو قتل إدريس لا شكّ فيه، **وسليمان هذا كان من رؤساء الشيعة ومتكلّميهم**، فمن يوثق بعده من النّاس؟[1]

([1]) أخبار فخّ 326

ونقل أبو الفرج الأصفهاني القصّة بتفاصيل أخرى: وبلغ الرشيد خبره فغمه، فقال النوفلي خاصة في حديثه وخالفه علي بن إبراهيم وغيره فيه، فشكا ذلك إلى يحيى بن خالد، فقال: أنا أكفيك أمره، ودعا سليمان بن جرير الجزري، **وكان من متكلمي الزيدية البترية ومن أولى الرياسة فيهم**، فأرغبه ووعده عن الخليفة بكل ما أحب على أن يحتال لإدريس حتى يقتله، ودفع إليه غانية مسمومة، فحمل ذلك وانصرف من عنده، فأخذ معه صاحبا له، وخرج يتغلغل في البلدان حتى وصل إلى إدريس بن عبد الله فمتّ إليه بمذهبه وقال: إنّ السلطان طلبني لما يعلمه من مذهبي، فجئتك، فأنس به واجتباه. وكان ذا لسان وعارضة، **وكان يجلس في مجلس البربر فيحتجّ للزيدية ويدعو إلى أهل البيت كما كان يفعل**، فحسن موقع ذلك من إدريس إلى أن وجد فرصة لإدريس فقال له: جعلت فداك، هذه قارورة غالية حملتها إليك من العراق، ليس في هذا البلد من هذا الطيب شيء، فقبلها وتغلل بها وشمّها، وانصرف سليمان إلى صاحبه، وقد أعدّ فرسين، وخرجا يركضان عليهما، وسقط إدريس مغشيّا عليه من شدة السم فلم يعلم من بقربه ما قصته[1].

فكلا المصدرين يجتمعان على حقيقة واحدة وهي أنّ قاتل إدريس

([1]) مقاتل الطالبيين 406.

الذي بعث به الرشيد كان من الشيعة، وهنا مربط الفرس إذ أنّ الشخصية التي ستضطلع بدور الاغتيال لابدّ أن تحظى بثقة كبيرة من إدريس وإلّا فإنّ العمليّة لن تتمّ البتّة، واختيار الرشيد لرجل من الشيعة بل من كبارهم دليل على أنّهم أقرب لإدريس من غيرهم وهذا كاشف على أنّه كان منهم أي من الشيعة، فلو كان سنيّا كما يدّعي البعض فما الذي يدفعه للوثوق بهذا الرجل الشيعي؟!

أضف إلى هذا أنّ نصّ أبا الفرج يدلّ على أمر آخر أوضح وهو أنّ سليمان بن جرير كان: "يجلس في مجلس البربر فيحتجّ للزيدية ويدعو إلى أهل البيت كما كان يفعل، فحسن موقع ذلك من إدريس"، أي أنّ الرجل قد ثنيت له الوسادة وبدأ بدعوة أهل المغرب البربر للتشيّع بحيث حسن ذلك في عين إدريس، فهل يوجد أوضح من ذلك؟!

الدليل الثامن: هو كلّ ما دلّ على تشيّع ابنه إدريس الثاني، فإنّه يدلّ بالأولويّة على تشيّع الأب لعدم إمكان تشيّع إدريس الثاني بسبب آخر سوى ما رسّخه أبوه في المجتمع البربري المغربي من معالم التشيّع الأصيل لأهل بيت النبي عليهم السلام.

وقد استوفى العلامة الشيخ محمود سعيد ممدوح البحث في أدلّة تشيّع إدريس الثاني في كتابه القيّم "طيّ القرطاس بتعيين مذهب الإمام

إدريس بن إدريس ساكن فاس" حيث جمع فيه عشرات الشواهد التي تقطع النزاع في هذا الأمر وتثبت المطلوب.

ويمكننا أن نضيف قرينة مهمّة لم يتعرّض لها مجيزنا الشيخ ممدوح وهي ما ذكره أبو نصر البخاري في سلسلته حيث قال: قد خفى على الناس حديث إدريس بن إدريس لبعده عنهم، ونسبوه إلى مولاه راشد وقالوا: "هو احتال في ذلك لبقاء الملك له، ولم يعقّب إدريس بن عبد الله"، وليس الأمر كذلك **فإنّ داود بن القاسم الجعفري -وهو أحد كبار العلماء ومن له معرفة بالنسب-** حكى أنّه كان حاضرا هذه القصة، وولد إدريس بن إدريس على فراش أبيه، وقال كنت معه بالمغرب فما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجها ولا أكرم نفسا[1].

هذا النصّ يخبرنا عن شخصيّة مهمّة كانت ببلاد المغرب ولعبت دورا كبيرا في إثبات نسب إدريس الثاني، والمقصود هو داود بن القاسم الجعفري.

بل نجد أنّ نفس الرجل قد رويت عنه قصّة اغتيال إدريس كما عند صاحب "أخبار فخ" قال: حدثني أحمد بن محمد بن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن الحسن، قال: **حدثني داود بن القاسم الجعفري:** أنّ سليمان بن

([1]) سر السلسلة العلويّة 13.

جرير أهدى إلى إدريس سمكة مشوية مسمومة فقتله، رضوان الله عليه ورحمته[1].

ونجد هذا الرجل مع إدريس الثاني بعد اعتلائه سدّة الحكم حيث نقل عنه البخاري: وقال كنت معه بالمغرب فما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجها، ولا أكرم نفسا[2].

بل نقل ابن أبي زرع الفاسي نصّا يثبت أنّ الرجل كان يشارك إدريس الثاني في غزواته: شهدت مع إدريس بن إدريس في بعض غزواته للخوارج الصفريّة من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا...[3].

وداود بن القاسم الجعفري لم يكن بالإنسان العاديّ بل كما قال أبو نصر البخاري في النصّ المتقدّم "وهو أحد كبار العلماء ومن له معرفة بالنسب"، ومن يقرأ ترجمته يعرف أنّه كان شيعيّا إماميّا بل كان من خواصّ أئمّة العترة الطاهرة، فقد ترجم له الطوسي بقوله: داود بن القاسم الجعفري، يكنى أبا هاشم، من أهل بغداد، جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، وقد شاهد جماعة منهم الرضا والجواد

---

(1) مقاتل الطالبيين 408.

(2) سر السلسلة العلويّة 13.

(3) الأنيس المطرب 15.

والهادي والعسكري وصاحب الأمر عليهم السلام، وقد روى عنهم كلهم عليهم السلام، وله أخبار ومسائل، وله شعر جيّد فيهم، وكان مقدّما عند السلطان[1].

فوجود هذا الشخص بقرب إدريس الثاني من مولده إلى ملكه مع قربه واختصاصه بأئمّة أهل البيت عليهم السلام دليل قويّ على أنّ هذه الدولة كانت بعين أئمّة أهل البيت وتحت إشرافهم، فليس محض مصادفة أن يكون أبو هاشم الجعفري في المغرب لحظة مولد إدريس الثاني لكي يكون الشاهد المعتدّ به لإثبات صحّة نسبه، وليس اتفاقا أن يكون موجودا معه في المواقف الكبرى كالحروب والغزوات!

فالذي يظهر أنّ "داود بن القاسم الجعفري" كان هو حلقة الوصل بين أئمّة أهل البيت (ع) وبين إدريس الأوّل، ثم تولّى هو إثبات نسب إدريس الثاني ورعايته إلى حين اشتداد عوده وقيامه بالأمر بنفسه، والظاهر أنّ مولى إدريس الأوّل "راشد" كان مجرّد واجهة إعلاميّة أمام البربر، في حين أنّ المدبّر الفعليّ للأمر من شهادة إدريس الأوّل إلى حين بلوغ إدريس الثاني هو "داود بن القاسم الجعفري".

وهذا الدليل يرجعنا إلى ما ذكرناه سابقا أكثر من مرّة من أنّ تحرّك

([1]) الفهرست 124.

إدريس ناحية المغرب لم يكن عشوائيّا بل كان خطّة مدروسة جدّا بدأ تنفيذها من زمن الإمام جعفر بن محمد الصادق الذي أرسل تلك البعثة التي سبق الحديث عنها لإعداد الأرضيّة المناسبة لهذه الدولة التي أصبحت ملاذا آمنا للعترة الطاهرة عليهم السلام.

الدليل التاسع: نختم بآخر دليل في هذا البحث وهو شهادة المؤرّخين بتشيّع إدريس ودولته، ومن باب الاختصار سننقل نصّين مهمّين جدّا يفيان بالغرض:

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته: والتشيّع غالب على أهل قم وبلاد إدريس بن إدريس وهي طنجة وما والاها والكوفة[1].

وهذا النصّ صريح في اشتراك قم والكوفة والمغرب في المذهب وهو التشيّع، ولا نبالغ إن قلنا أنّ المراد هو خصوص الإماميّة من الشيعة إذا وضعنا النصّ في سياقه.

وتكمن قيمة هذا النصّ في أمرين:

-القرب الزماني لأبي الحسن الأشعري من دولة الأدارسة حيث أنّه قد أدرك نهايات هذه الدولة، فالأشعريّ قد توفي في سنة 324هـ في حين أنّ سقوط دولة الأدارسة كان في سنة

([1])مقالات الإسلاميين 64.

313هـ، فهي شهادة حسيّة لا حدسيّة وهي دراية لا رواية.

-الأمر الآخر الذي يعطي قيمة لهذه الشهادة هو تخصّص أبي الحسن الأشعري في علم الكلام وإحاطته بالملل والنحل والمذاهب والفرق، وتعبيره بـ"التشيّع" يراد منه معناه الدقيق وهو المذهب المعهود لا مجرّد المحبّة.

النصّ الثاني الذي يحتاج أن نقف عنده هو ما ذكره ابن خلدون في تاريخه:ووقع خبر مهلكه من بني العبّاس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدّعوة العلويّة بالمغرب واقتلاع جرثومتها، ولمّا تأدّى إليهم خبر الحمل المخلّف لإدريس فلم يكن لهم إلّا كلا ولا، وإذا بالدّعوة قد عادت والشّيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بإدريس بن إدريس قد تجدّدت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السّهام[1].

وهذا النصّ صريح في أنّ دولة إدريس كانت دولة شيعيّة وكذلك دولة ابنه، وهذه الشهادة لا تقلّ قيمة على ما تقدّم لكون ابن خلدون من أهل بلاد المغرب وهو خرّيت هذا الفن وفارس ميدانه لاسيما فيما يتعلّق بتاريخ تلك المنطقة.

تلك تسعة كاملة تقطع النزاع أمام كلّ من يريد أن يحرّف التاريخ

([1]) تاريخ ابن خلدون 32/1.

ويزعم غير ما تقدّم من أنّ إدريس كان من الشيعة بلا خلاف، ولولا وجود بعض المشكّكين كما سيأتي لما احتاج الأمر للاستدلال والاحتجاج لوضوحه كالشمس في رابعة النهار، لكنّنا ابتلينا في هذا الزمن بمن ينكر الواضحات ويشكّك في البديهيّات.

سنيّة الأدارسة:

أصرّ بعض المعاصرين على نفي تشيّع الأدارسة بدءا بـ"إدريس الأكبر" ومرورا بأبنائه من بعده، حيث استمات بعضهم لإثبات كونهم من أهل السنّة والجماعة:

قال بعض المعاصرين المصرّين على سنيّة الأدارسة: من الأخطاء الشائعة القول بأنّ دولة الأدارسة دولة شيعيّة لأنّ مؤسّسيها وأمراءها كانوا من آل البيت، والحقيقة أنّ الأدارسة رغم علويّتهم لم يكونوا شيعيين، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأدارسة أو أتباعهم شيعيّا، فقد كانوا سنيين ولا يعرفون الآراء الشيعيّة التي شاعت على أيّام الفاطميين، ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السنّي المالكي، ومن البديهي أنّ آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة لأحد أمّا الشيعة فهم أنصارهم،

والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنّها كانت دولة علويّة هاشميّة[1].

رغم اعترافه بشيوع نسبة الأدارسة للتشيّع إلّا أنّه ينفي هذا الأمر دفعا بالصدر دون أن يأتي بشواهد تاريخيّة حقيقيّة على ذلك، بل ينسبهم إلى التسنّن وتحديدا إلى المذهب المالكي بلا دليل ولا برهان، فهل يمكن ردّ الأدلّة التسعة التي ذكرناها سابقا بكلام مجرّد عن كلّ استدلال؟!

نعم، حاول البعض إقامة عدّة شواهد على هذا المدّعى وهي جديرة بالوقوف عندها ومناقشتها:

قالوا: إنّ الملاحظ في ما نقل عن إدريس وبنيه من بعده يجد غيابا للعقائد الشيعيّة كالإمامة والعصمة والمهدويّة وغيرها من الأمور التي تعتبر ركيزة أساسيّة في الحالة الشيعيّة، ولذلك نجدها حاضرة بقوّة في خطابات الفاطميّين الذين لا يختلف اثنان في تشيّعهم.

الجواب: إنّ هذا التصوّر يكشف عن عدم إحاطة حقيقيّة بالوضع العلوي في ذلك الزمن، فالثورات التي خرجت في المشرق والمغرب ضدّ الأمويّين والعبّاسيين كانت تدعو "للرضا من آل محمد" أي أنّها كانت تدعو لرجل من أهل البيت عليهم السلام لم يصرّح باسمه خوفا عليه من سطوة بني أميّة وبني العبّاس في حال فشل الثورة.

---

(1) معالم تاريخ المغرب والأندلس 123.

فالمولى إدريس كان على خطى من سبقه من العلويين بدءا من الإمام زيد الشهيد ووصولا إلى الحسين بن علي صاحب فخّ، إذ لم يكن داعية لنفسه بل كان يدعو للرضا من آل محمد كما هو شعار الثورة التي شارك بها في الحجاز، ولذلك فلم ينسب لنفسه الإمامة ولم يدّع العصمة ولا المهدويّة، ولم يصرّح بارتباطه بإمام معصوم في المشرق لكونه سيعطي ذريعة للعبّاسيين لاستئصال من بقي من العلويين في الحجاز والعراق!

أضف إلى هذا أنّه لا يوجد عندنا تراث كامل للمولى إدريس، فهو لم يؤلّف كتابا ولم يصلنا أنّه قدّم درسا في العقائد أو في الفقه، بل حتّى ما وصلنا من خطبه وكلماته كانت تدور حول الحالة السياسيّة في ذلك الزمن وليس الحالة الدينيّة، فتراثه الواصل إلينا هو تراث سياسيّ بحت، فكيف يمكن جعله طريقا لمعرفة مذهبه؟

أمّا بالنسبة للفاطميين فالأمر مختلف تماما، فقد كان خلفاؤهم يدّعون الإمامة والعصمة والمهدويّة ولذلك كانوا يكثرون من ذكر هذه الأمور على المنابر لتثبيت ملكهم وتوطيد سلطانهم.

قالوا: من الأدلّة على عدم تشيّع الأدارسة محاربة الفاطميين لهم، فلو كانوا شيعة مثلهم لما شهر الجيش الفاطمي سيفه في وجه الأدارسة ولما ساهموا في إسقاط ما بقي من دولتهم.

والجواب: إنّ هذا الدليل أضعف من سابقه ويمكن الردّ عليه نقضا وحلّا، أمّا النقض فهو أنّ العباسيين قد قاتلوا الأمويين رغم أنّها دول سنّية، بل نفس الأدارسة قد تقاتلوا فيما بينهم بعد تقسيم الدولة بين أبناء إدريس الثاني فهل يعني هذا أنّهم كانوا مختلفين مذهبيّا؟!

أمّا حلّا فمن المعروف أنّ الحروب سببها تقاطع مصالح الدول فقد يتقاتل الأخوان إذا تصادمت مصالحهما كما حصل مع الأمين والمأمون أبناء الرشيد، وقد يتفق الأضداد إذا اجتمعت المصالح، ومن يقرأ تاريخ الدول و الملوك يعلم هذا جيّدا.

قالوا: لو كان الأدارسة شيعة لكان القضاء على مذهبهم، لكن التاريخ يثبت أنّ قضاتهم كانوا مالكيّة، وكانوا يحكمون بين الناس بمذهب الإمام مالك بن أنس وهذا يكشف أنّ هذا المذهب هو المرضيّ عندهم.

والجواب: إنّ أصل دعوى استقضاء المالكيّين ما نقله ابن أبي زرع في تاريخه عند حديثه عن إدريس الثاني حيث قال: وفي سنة تسع وثمانين ومئة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقيّة وبلاد الأندلس في نحو الخمسمئة فارس من القيسيّة والأزد ومذحج وبني يحصب والصدف وغيرهم، فسرّ إدريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقرّبهم

ورفع منازلهم، وجعلهم بطانته دون البربر، فاعتزّ بهم لأنّه كان فريدا بين البربر ليس معه عربيّ،...، واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي من قيس عيلان، وكان رجلا صالحا ورعا فقيها سمع مالكا وسفيان الثوري وروى عنهم كثيرا[1].

وهذا الكلام ترد عليه عدّة إشكالات:

الأوّل: أنّ قصّة هذا الوفد والأسماء التي ذكرت فيه ممّا اختصّ بنقلها ابن أبي زرع المتوفّى سنة 741هـ ولم نجد له سلفا قبله قد نقل هذه التفاصيل، وهذا ما يجعلنا نتوقّف في مثل هذا الأمر لسعة الهوّة الزمنيّة بينه وبين الحدث التي تزيد على ستة قرون.

الثاني: أجهدت نفسي بالبحث عن هذا القاضي "عامر بن محمد بن سعيد القيسي" فلم أجد له ذكرا، فقد قلّبت كتب التراجم والطبقات والتاريخ وكلّ ما يمكن أن يشار فيه لهذه الشخصيّة فلم أجد أثرا ولا عينا له فيها!

والعجيب أنّ نصّ ابن أبي زرع قد ذكر أمورا مهمّة:

- منها أنّه كان في عداد الفقهاء
- ومنها أنّه سمع من مالك والثوري

---

(1) الأنيس المطرب 18.

- ومنها أنّه روى عنهما كثيرا

وهذه الأمور تقتضي أن يكون لهذه الشخصيّة ذكرا يليق بها في الكتب المختلفة، فقد وجدنا من هم أدنى منها بكثير قد اعتني بهم وترجموا في كتب التراجم والطبقات، خصوصا وأنّ المالكيّة قد اهتمّوا بذكر كلّ شاردة وواردة حول مالك، فأحصوا من روى عنهم ومن رووا عنه بل ترجموا لكلّ فقيه مالكيّ على وجه المعمورة، فكيف يغفل ذكر مثل هذه الشخصيّة؟!

ولذلك نحن نشكّ في الوجود التاريخيّ لهذه الشخصيّة بهذا الاسم الذي ذكره ابن أبي زرع وتبعه عليه باقي المؤرّخين.

الثالث: لو سلّمنا بما ذكره ابن أبي زرع فإنّ استقضاء رجل لا يعني اعتماد مذهبه، فمن يقلّب تاريخ الدول الإسلاميّة يجد كثيرا من الحالات التي كان فيها مذهب القاضي مختلفا عن مذهب الدولة:

فلو رجعنا إلى الدولة البويهيّة التي يجمع المؤرّخون على كونها دولة شيعيّة، فإنّنا نجد أعلى منصب دينيّ فيها كان للقاضي عبد الجبّار الهمداني الذي كان معتزليّا بلا خلاف، بل كان يردّ على الشيعة ويحاول تفنيد أدلّتهم وتصحيح مذهب أهل السنّة، ودونك كتابه "المغني" الذي شحن جزءه الخاص بالإمامة بمناقشة أدلّة الشيعة.

بل لو رجعنا إلى الدولة الفاطميّة التي يسلّم القاصي والداني بشيعيّتها لوجدنا أنّ القضاء فيها كان للأحناف بشهادة القاضي عياض الذي قال: وكان الظهور في دولة بني عبيد لمذهب الكوفيين لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل، فكان فيهم القضاء والرئاسة[1].

بل نقل الدبّاغ أنّ الفاطميّين قد نصّبوا ابن أبي منصور قاضيا لهم رغم أنّه كان معارضا لهم: وأجبره اسماعيل المنصور على القضاء فاشترط عليهم أن لا يأخذ لهم صلة ولا يركب لهم دابّة ولا يقبل شهادة من طاف بهم أو من قاربهم، ولا يركب إليهم مهنّيا ولا معزّيا، فأجابه إلى هذا إسماعيل وقبل شرطه[2].

فالتاريخ مليء بالأشباه والنظائر وليس من بدع القول والفعل أن يكون مذهب القاضي مخالفا للمذهب الرسمي للدولة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على تسامح هذه الدول، وكلّ هذا على فرض تنصيبهم لقضاة مالكيّة والحال أنّ هذا الأمر لم يثبت.

([1]) ترتيب المدارك 26/1.

([2]) معالم الإيمان 44.

الأدارسة ونشر المالكيّة:

لعلّ أهمّ نصّ يتمسّك به هو ما ذكره المقري التلمساني حول سبب اشتهار مذهب مالك في المغرب حيث قال: سبب اشتهار مذهب مالك بالمغرب واقتصارهم عليه وأمر مولانا إدريس لهم باتباعه رواية مالك في الموطأ عن جده عبد الله الكامل وفتياه بخلع أبي جعفر المنصور العباسي وبيعته لمحمد النفس الزكية وعهده لأخيه إدريس الأكبر بالخلافة بعده قاله ابن خلدون فكان مالك هو السبب في ولايتهم الملك فقال إدريس: نحن أحقّ باتباع مذهبه وقراءة كتابه يعني الموطأ وأمر بذلك في جميع عمالته[1].

وهذا الكلام مجانب للواقع ومشحون بالاشتباهات نذكر منها:

الاشتباه الأوّل: قوله "رواية مالك في الموطأ عن جده عبد الله الكامل"، فيمكن لكلّ باحث أن يتفحّص كتاب "الموطّأ" بنفسه ويستقصي من روى عنه مالك في هذا الكتاب، أو يرجع للكتب التي قامت بجرد من روى عنهم مالك في كتابه المذكور ليصل إلى هذه النتيجة: وهي أنّ مالك بن أنس لم يرو في موطّئه عن عبد الله الكامل والد المولى إدريس!

([1]) التراتيب الإداريّة 8.

ولا أدري كيف يغفل مثل هؤلاء عن هذا رغم وضوح بطلان الأمر، خصوصا وأنّ القوم يعتبرون "الموطأ" عدل القرآن الكريم، إذ لا يوجد في الموطإ من أوّله إلى آخره ذكر لعبد الله الكامل من قريب ولا من بعيد.

<u>الاشتباه الثاني</u>: قوله "وفتياه بخلع أبي جعفر المنصور العباسي"، إذ لا يوجد في كلّ تراث مالك بن أنس الذي وصل إلينا ولا فيما نقل من تاريخه فتوى له بخلع أبي جعفر المنصور، والثابت عنه أنّه أفتى بعدم صحّة طلاق المكره فحملها الوشاة على بيعة المنصور نكاية به!

قال الواقدي: لما دعي مالك بن أنس وشوور وسمع منه وقبل قوله، شنف الناس له وحسدوه وبغوه بكل شيء، فلما ولي جعفر بن سليمان على المدينة سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت الأحنف في طلاق المكره أنّه لا يجوز، فغضب جعفر بن سليمان، فدعا بمالك فاحتجّ عليه بما رقي إليه عنه، ثم جرّده ومدّه وضربه بالسياط ومدّت يده حتى انخلع كتفاه وارتكب منه أمر عظيم[1].

فمن أين جاءت هذه الفتوى؟!

([1]) طبقات ابن سعد 468/5.

الاشتباه الثالث: قوله "وبيعته لمحمد النفس الزكية"، وهذا زعم لا واقع له البتّة بل الواقع خلافه حيث نصّ المؤرّخون على أنّ مالكا لزم بيته ولم ينبس ببنت شفة في ثورة الحسنيين في المدينة:

قال الواقدي: لمّا خرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة لزم مالك بيته، فلم يخرج منه حتى قتل محمد[1].

فلا ندري كيف علموا أنّ مالكا كان مؤيّدا لهذه الثورة؟

وأين هي النصوص التاريخيّة الدالّة على ذلك؟

نعم، ورد أنّ أهل المدينة قد استفتوه في قضيّة الخروج، قال ابن الأثير: وكان أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد وقالوا : إنّ في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال: إنّما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد ولزم مالك بيته[2].

وهذا النص يرجعنا للمسألة السابقة وهو أنّ مالكا أفتى في قضيّة جزئيّة وهي "شرعيّة بيعة المكره" لا أنّه أفتى الناس في أصل الخروج، وإلّا ما الذي يجعله يلزم بيته إذا كان يرى أنّ هذا الخروج فيه مصلحة للناس في دينهم ودنياهم؟!

([1]) طبقات ابن سعد 468/5.

([2]) الكامل في التاريخ 532/5.

الاشتباه الرابع: قوله "وعهده لأخيه إدريس الأكبر بالخلافة بعده" أي عهد النفس الزكيّة لإدريس بالإمامة بعده! وبغض النظر عن طبيعة العهد الذي كان بين ثوّار أهل البيت عليهم السلام فإنّ النفس الزكيّة لم يعهد لإدريس بن عبد عبد الله بشيء، والسبب في ذلك أنّ ثورة النفس الزكيّة كانت في سنة 145هـ في حين أنّ إدريس ولد في سنة 127هـ أي كان عمره حينها 18 سنة، فهل سيترك النفس الزكيّة كبار بني هاشم ويعهد لإدريس؟!

والعجيب أنّه نسب هذا الكلام لابن خلدون مع أنّه قد نصّ صريحا على خلاف ذلك حيث قال: وقال الزّيديّة بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمّد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السّبط ويقال له النّفس الزّكيّة، فخرج بالحجاز وتلقّب بالمهديّ وجاءته عساكر المنصور فقتل **وعهد إلى أخيه إبراهيم** فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن عليّ فوجّه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى[1].

الاشتباه الخامس: قوله "فكان مالك هو السبب في ولايتهم الملك" وما أعجبه من قول وأعظمها من دعوى: فهو يصرّح أنّ حكم إدريس

([1]) تاريخ ابن خلدون 250/1.

بن عبد الله الحسنيّ العلوي الهاشمي يفتقر إلى شرعيّة يضفيها عليه مالك بن أنس الأصبحي!

ويكفينا ردّا لهذه الدعوى ملاحظة خطب المولى إدريس ورسائله التي وصلت إلينا، فقد كان واضحا وجليّا فيها أنّ شرعيّته مستمدّة من كونه منتسبا إلى البيت النبويّ الطاهر الذي يخوّل له إحاطة بنصوص الكتاب والسنّة أكثر من غيره، بالإضافة إلى تعداده لجور الخلفاء السابقين من بني أميّة وبني العباس.

الاشتباه السادس: قوله "فقال إدريس نحن أحقّ باتباع مذهبه وقراءة كتابه يعني الموطأ وأمر بذلك في جميع عمالته"!

أقول إنّ هذا الكلام باطل لوجوه:

أوّلا: لا يوجد مصدر تاريخيّ معتبر واحد ذكر هذا الكلام، ولم نعثر عليه إلّا في بعض كتب المتأخرين الذين لا قيمة لكلامهم من جهة تاريخيّة لبعد الهوّة الزمنيّة وعدم وجود السند.

ثانيا: لو رجعنا إلى سلسلة سماعات الموطّأ في بلاد المغرب فإنّنا لا نجد أيّ طريق من طرق الموطّأ ينتهي إلى إدريس أو أحد أبنائه من بعده، بل الحقيقة أنّنا لا نجد ذكرا لموطّأ مالك في دولة الأدارسة، فإنّي بحثت ولم أقع على أيّ نصّ تاريخيّ يمكن أن يكون دليلا على وجود هذا

الكتاب بالفعل في بلاد المغرب في تلك الحقبة.

ثالثا: إنّ أمر إدريس الثاني بنسخ كتاب الموطّأ ونشره في أرجاء المغرب يقتضي وجود ولو نسخة واحدة ترجع لذلك الزمن، أو على الأقل مخطوطات قد نسخت على النسخة التي اعتمدها إدريس الثاني للموطأ، والحال أنّه لا وجود لأيّ مخطوط يرجع إلى ذلك الزمن، ولم يشر من قريب ولا من بعيد إلى النسخة التي اعتمدها إدريس من كتاب الموطّأ.

وبهذا يعلم أنّ نسبة الأدارسة للمالكيّة فضلا عن دعوى نشرها أمر غير صحيح، وقد أنصف الحلبي (المتوفّى 1120هـ) عند حديثه عن مذهب إدريس الثاني حيث قال: لم أر من تعرّض لذلك ولا من ذكره من أهل التاريخ لقلّة اعتنائهم بذلك، ولو كان على مذهب أحد منهم لذكر ذلك[1].

فسبحان مغيّر الأحوال كيف أصبح اليوم مذهبه مالكيّا بل أصبح داعية لمالك في المغرب ومثبّتا لمذهبه!

([1]) الدرّ النفيس 98/2.

أين تراث الأدارسة؟

حكم الأدارسة دهرا من الزمن جزءا من المغرب العربي حيث امتدت دولتهم قرابة القرنين من الزمان، وهنا يطرح تساؤل جدير بأن نقف عنده:

أين تراث الأدارسة؟

ولماذا هذا الشحّ في المعلومات المتعلّقة بهذه الدولة العلويّة العظيمة؟

والجواب على هذا التساؤل يكمن في معرفة مصير هذه الدولة، حيث ينقل لنا التاريخ أنّها تعرّضت لهجمات من عدّة جهات، وما أحسن ما قاله ابن أبي زرع في وصف حالهم: وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين وعلمين كبيرين دولة العبيديّين بمصر وإفريقيّة ودولة بني أميّة بالأندلس[1].

بل تعرّض نفس الأدارسة أي ذريّة المولى إدريس إلى محاولة إبادة واستئصال من رجل عرف تاريخيّا باسم "موسى بن أبي العافية" الذي ارتكب مجازر ومذابح في حقّ العلويين.

قال الناصري في استقصائه: لما استولى موسى بن أبي العافية على فاس والمغرب **شمّر لطرد الأدارسة عنه**، فأخرجهم من ديارهم

([1]) الأنيس المطرب 81.

وأجلاهم عن بلادهم من شالة وآصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم ولجؤوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزّهم التي أسّسها سلفهم، وكانت قلعة حجر النسر حصنا منيعا بناه محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس شامخا في عنان السحاب فنزل عليهم موسى بن أبي العافية **وشدّد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم** فعذله على ذلك أكابر دولته وقالوا له أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم هذا الشيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم إلى فاس وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس يمنعهم من التصرف وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة[1].

فإن كان هذا الرجل قد شمّر ساعديه لاستئصال البشر بل خير البشر، فماذا صنع بتراث الأدارسة من كتب وتآليف وتصانيف حيث أجمع القاصي والداني على أنّهم كانوا أهل دين وعلم وفهم!

ونختم بصورة نقلها لنا التاريخ لوحشيّة هذا الرجل: فزحف إليه موسى بن أبي العافية فحاصره حتّى تغلّب عليه، **فقتله واستباح المدينة وانتهبها، وهدم أسوارها وخرب ديارها ونسف آثارها وتركها بلاقع**

([1]) الاستقصا 243/1.

تسفي عليها الرياح وتعاوى فيها الذئاب، وبلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة بن حبوس، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة[1].

وقد نقل لنا التاريخ بعض الإشارات التي تبيّن لنا طريقة تعامل الدول التي جاءت بعد الأدارسة مع كتب مخالفيهم، فقد ورد في رسالة تاشفين بن علي بن يوسف المرابطيّ مؤرّخة بسنة 538هـ: ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أو صاحب بدعة فإيّاكم وإيّاه، وخاصّة وفّقكم الله، كتب أبي حامد الغزالي، فليتتّبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الإيمان من يتّهم بكتمانها[2].

فإن كان القوم يعتبرون أبا حامد الغزالي صاحب بدعة ويحثّون الناس على تتبّع كتبه وحرقها رغم عدم الاختلاف في سنيّته، فمن باب أولى أن يصنع مثل هذا مع الأدارسة الشيعة بل أكثر منه!

صفحة مشرقة:

نشأت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ولم تصل إلى تونس حيث امتدّت حدودها إلى عدّة مناطق من الجزائر، لكنّ عدل حكّامهم

([1]) المسالك والممالك 773/2.

([2]) دولة الإسلام في الأندلس 550/3.

وحسن سيرتهم وسلوكهم في الرعيّة قد تجاوز الحدود الفعليّة لهذه الدولة ليصبح حديث كلّ الناس في تلك المناطق، خصوصا وأنّ هذه الدولة قد قدّمت نموذجا حسنا للحكم والإدارة وهو ما زاد الرصيد العاطفي لأهل البيت (ع) عند عامّة الناس بعد أن جسّدوا العدل الحقيقي الذي كان يصبو إليه البربر بعد أن ذاقوا الويلات من الفاتحين والحكومات التي تعاقبت على بلدانهم، وبهذا ترسّخ الوجود الشيعي في قلوب الناس ووجدانهم، وأصبحت الدول الخارجة عن سلطان الأدارسة تتطلّع لقدوم رجل من أهل البيت النبوي عليهم السلام يسير فيهم بسيرة المولى إدريس ويقيم عدله.

الصفحة الرابعة: الفاطميون

نصل الآن إلى أهمّ صفحة من تاريخ التشيّع في تونس وهي قيام دولة شيعيّة قويّة فيها هي الدولة "الفاطميّة" أو "العبيديّة" كما يحلو لبعض المؤرّخين أن يطلقوا عليها، ولعلّ إطلاق مفردة "دولة" عليها يعتبر تصغيرا لها بل هي "إمبراطوريّة" بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

بداية الدعوة:

تتميّز الدولة الفاطميّة عن غيرها من الدول بأمر مهمّ جدّا وهو أنّ قيامها كان نتيجة حركة سلميّة، حيث أنّ دعاة الإسماعيليّة قد قاموا بالترويج لأهل البيت (ع) والدعوة إليهم ولم يقبلوا من المشرق حاملي السيوف والرماح كما جاء الفاتحون قبلهم.

وقد تبيّن لك ممّا تقدّم أنّ الأرضيّة كانت مهيّأة جدّا لقبول مثل هذه الدعوة خصوصا بعد التجربة الناجحة للأدارسة والتي جعلت من التشيّع يتغلغل في قلوب عامّة الناس، بل وصل إلى مركز قرار الدولة الحاكمة في تونس وهي دولة الأغالبة حيث نقل المقريزي نصّا مهمّا يبيّن

لنا عمق التأثير الشيعي: وكان أكثر من عند زيادة الله[1] من الوزراء شيعة[2].

وقد ألّف القاضي النعمان مؤرّخ الدولة الفاطميّة كتابا أسماه "افتتاح الدعوة" ذكر فيه ملابسات تأسيس دولة الفاطميّين: وسار القوم فدخلوا بلد كتامة يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأوّل سنة ثمانين ومائتين ومعهم أبا عبد الله الأندلسي وأبو القاسم الورفجومي، فتنازع أبا عبد الله كلّ واحد من الكتاميّين ليذهب به إلى موضعه رغبة فيه وحرصا عليه حتى صار أمرهم إلى التشاحّ والمنابذة...ونزل أبو عبد الله بايكجان فأقام به، وصدر عنه كلّ من كان معه من الحجيج من كتامة إلى مواضعهم فأخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بأخباره ووصفوا لهم علمه وحاله، فأقبل الناس إليه من كلّ ناحية وتسامعوا به، فكان يجلس لهم ويحدّثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى الأئمّة من ولده، فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لقّن عنه وأحسّ فيه ما يريده ألقى إليه شيئا بعد شيء حتى يجيبه فيأخذ عنه[3].

فداعية الفاطميّين لم يأت بجيوش جرّارة من المشرق، بل جاء وحيدا

([1]) اتّعاظ الحنفاء 59/1.

([2]) لعلّ مقصوده زيادة الله الثالث آخر حكّام الدولة الأغلبيّة.

([3]) افتتاح الدعوة 36.

فريدا ليس له سلاح إلّا علمه وتشيّعه لأهل البيت (ع)، وحتى عندما اصطدم بالدولة الأغلبيّة وحصلت تلك المعارك المشهودة لم يستعن بأهل المشرق بل إنّ القبائل البربريّة المؤمنة بمبادئ هذا الداعية هي التي تولّت المواجهة وكسر شوكة الأغالبة.

والمهمّ في كلّ ما ذكرناه هو أنّ الدولة الفاطميّة لم تقم على حدّ سيوف المشارقة كما يحاول بعض من كتب في التاريخ تصوير ذلك، بل كان قيامها نتيجة حركة دينيّة فكريّة بحتة اقتنع بها البربر بحيث بذلوا دماءهم وأرواحهم في سبيل تحقيق هذه الفكرة على الأرض وهي: قيام دولة عدل يحكمها رجل من العترة المحمديّة الطاهرة.

هل كانوا من أهل البيت؟

إنّ أدلّ دليل على ما قدّمناه هو الحملة الهوجاء التي شنّها العبّاسيون على حكّام الدولة الفاطميّة محاولين نفي نسبهم، إذ مثل هذا السلوك دليل على أنّ شرعية هؤلاء لم تكن قائمة على سيف أو مستندة على رمح بل كان منشؤها الأساسي هو انتماؤهم للبيت النبوي الطاهر الذي كان حبّه يسري في شرايين البربر، وهي نفس الطريقة التي استعملت سابقا مع إدريس الثاني عندما أشاعوا أنّه ابن راشد مولى إدريس الأوّل بحيث

تنتفى عنه صفة العلويّة الهاشميّة.

وقد ذكر المؤرّخون ما صنعه بنو العبّاس في سبيل التشكيك في نسب الفاطميّين، ولعلّ أفضل من قدّم لنا صورة على واقع الحال ابن الأثير في كامله حيث قال: وقد اختلف العلماء في صحة نسبه، فقال هو وأصحابه القائلون بإمامته: إنّ نسبه صحيح على ما ذكرناه، ولم يرتابوا فيه؛ وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضا، ويشهد بصحّة هذا القول ما قاله الشريف الرضي:

ما مقامي على الهوان وعندي   مقول صارم وأنف حمي

ألبس الذلّ في بلاد الأعادي   وبمصر الخليفة العلويّ

من أبوه أبي ومولاه مولاي   إذا ضامني البعيد القصيّ

وإنما لم يودعها في بعض ديوانه خوفا، ولا حجّة بما كتبه في المحضر المتضمّن القدح في أنسابهم، فإنّ الخوف يحمل على أكثر من هذا، على أنّه قد ورد ما يصدق ما ذكرته، وهو أنّ القادر بالله لما بلغته هذه الأبيات أحضر القاضي أبا بكر بن الباقلّاني، فأرسله إلى الشريف أبي أحمد الموسوي والد الشريف الرضي، يقول له: قد عرفت منزلتك منّا، وما لا نزال عليه من الاعتداد بك بصدق الموالاة منك، وما تقدّم لك في

الدولة من مواقف محمودة، ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه، ويكون ولدك على ما يضادّها، وقد بلغنا أنّه قال شعرا، وهو كذا وكذا[1].

إلى أن يقول:...ففي امتناع الرضيّ من الاعتذار، ومن أن يكتب طعنا في نسبهم مع الخوف، دليل قويّ على صحّة نسبهم، وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين في نسبه، فلم يرتابوا في صحّته، وذهب غيرهم إلى أنّ نسبه مدخول ليس بصحيح، وعدا طائفة منهم إلى أن جعلوا نسبه يهوديّا، وقد كتب في الأيام القادريّة محضر يتضمن القدح في نسبه ونسب أولاده، وكتب فيه جماعة من العلويين وغيرهم أنّ نسبه إلى أمير المؤمنين عليّ غير صحيح، فممّن كتب فيه من العلويين المرتضى، وأخوه الرضيّ، وابن البطحاوي، وابن الأزرق العلويان، ومن غيرهم ابن الأكفاني وابن الخرزي، وأبو العباس الأبيوردي، وأبو حامد، والكشفلي، والقدوري، والصيمري أبو الفضل النسوي، وأبو جعفر النسفي، وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب في المحضر إنّما كتبوا خوفا وتقيّة، ومن لا علم

([1]) الكامل في التاريخ 24/8.

عنده بالأنساب فلا احتجاج بقوله[1].

وقد أشار ابن خلدون مؤرّخ المغرب لهذه الحقيقة فقال: وأمّا المحضر الّذي ثبت ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم، وشذّ فيه أعلام الأئمّة مثل القدوري والصهيريّ وأبي العبّاس الأبيورديّ وأبي حامد الأسفرايينيّ وأبي الفضل النسويّ وأبي جعفر النسفيّ، ومن العلويّة المرتضى وابن البطحاوي، وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبو عبد الله بن النعمان، فهي شهادة على السماع، وكان ذلك متّصلا في دولة العبّاسية منذ مائتين من السنين فاشيا في أمصارهم وأعصارهم، والشهادة على السماع في مثله جائزة على أنّها شهادة نفي، ولا تعارض ما ثبت في كتاب المعتضد مع أن طبيعة الوجود في الانقياد لهم، وظهور كلمتهم أدلّ شيء على صدق نسبهم، وأمّا من جعل نسبهم في اليهوديّة أو النصرانيّة لميمون القدّاح أو غيره فكفاه إثما تعرّضه لذلك[2].

فهذه النصوص التاريخيّة تبيّن لنا حقيقة الحال في ذلك الزمن وهو أنّ العباسيّين قد شنّوا حربا إعلاميّة على هذه الدولة الفتيّة لضرب شرعيّتها المتمثّلة في الانتساب إلى البيت النبوي وبالتالي سقوط هذا العرش الذي

---

(1) الكامل في التاريخ 26/8.

(2) تاريخ ابن خلدون 449/3.

لم يثبت بعد والمنع من تكرار تجربة المولى إدريس الذي كان شوكة في حلوق بني العباس.

فرض المذهب الشيعي!

من أهمّ المآخذ على الدولة الفاطميّة هي أنّها سارعت منذ قيامها إلى فرض المذهب الشيعيّ فرضا على أهل تونس والمغرب العربي، بل سعت بكلّ ما تملك من سلطة ونفوذ إلى محو المذاهب الأخرى ومحاربة أهلها وإجبارهم على تركها والتخلي عنها!

وقد ضخّمت هذه الدعوى لسببين:

- تشويه صورة الدولة الفاطميّة ووصمها بالدمويّة
- اعتبار المذهب الشيعيّ دخيلا على المنطقة

ومن هنا فإنّ المؤرّخين قد أعطوا مساحة واسعة في كتبهم للحديث عن هذا الجانب وذكروا صورا بشعة جدّا من أساليب قمع أهل السنة وإجبارهم على التشيّع، بل تعذيبهم والتنكيل بهم وقتلهم بأبشع الصور!

إلّا أنّ ما ذكره هؤلاء يصطدم بأمور تجعلنا نطرح عدّة علامات استفهام عن هذه الحوادث المذكورة:

الأولى: ذكرنا في الفصول السابقة عدّة شواهد على أنّ التشيّع قد

دخل بل تغلغل في تونس منذ منتصف القرن الثاني للهجرة أي قبل قدوم الفاطميين بأكثر من قرن:

فقد مرّ عليك نصّ المقريزي على دخول التشيّع إلى رجال حكم الأغالبة: وكان أكثر من عند زيادة الله من الوزراء شيعة[1].

ونضيف هنا نصّا آخرا ذكره المالكي يثبت الوجود الشيعي قبل دخول الفاطميين، قال: وكان محمد بن عمر المروذي هذا معتقدا لمذهب الشيعة معروفا بذلك فلمّا دخل الشيعي -لعنة الله عليه- بادر إليه ودخل في دعوته ولزمه فولاه قضاء إفريقية[2].

وعين هذا الأمر ذكره القاضي النعمان: وولّى القضاء محمد بن عمر المروذي، وكان له تشيّع قديم ونظر في الفقه من قول الأئمّة عليهم السلام[3].

فإن كان التشيّع حاضرا دون أن يُشهر سيف أو تُسفك قطرة دم، فما الحاجة إلى استعمال القوّة لفرض هذا المذهب مع ضمان تشيّع الأغلبيّة دون استعمال العنف؟!

([1]) اتّعاظ الحنفاء 59/1.

([2]) رياض النفوس 55/2.

([3]) افتتاح الدعوة 152.

الثانية: وردت عدّة نصوص تبيّن أنّ الفاطميين قد استقضوا أناسا من مذاهب أخرى مختلفة عنهم:

فقد شهد القاضي عياض بذلك عند قوله: وكان الظهور في دولة بني عبيد لمذهب الكوفيين لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل، فكان فيهم القضاء والرئاسة[1].

ومراده من مذهب الكوفيين هو مدرسة أهل الرأي المنسوبة لأبي حنيفة النعمان، فقد كان القضاء في الدولة الفاطميّة موكولا لهم، أمّا تعليل القاضي عياض بأنّ سبب ذلك هو موافقتهم في مسألة تفضيل الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن باقي الصحابة فإنّه تعليل عليل لكونه لم يعلم أنّه من مذهب الأحناف هذا التفضيل، بالإضافة إلى أنّه حتّى مع التسليم بذلك فالتفضيل لا يُخرج السنيّ عن سنيّته لكون هذه المسألة ليست من أصول العقائد.

بل أشار النويري إلى أنّ الفاطميين كانوا قد أعطوا مساحة حريّة للرعيّة في اختيار القاضي حيث قال عند تعداده لقضاة القائم الفاطمي: إسحاق بن أبي المنهال إلى أن توفّي، ثم أحمد بن بحر إلى أن قتله أبو زيد لمّا فتح إفريقية فى صفر سنة ثلاثين؛ ثم أحمد بن الوليد، ولّته الرّعيّة

([1]) ترتيب المدارك 26/1.

فأقرّه[1].

والأعظم ممّا تقدّم ما ذكره الدبّاغ من أنّ الفاطميّين قد نصّبوا ابن أبي منصور "المالكي"قاضيا لهم رغم أنّه كان معارضا لهم: وأجبره إسماعيل المنصور على القضاء فاشترط عليهم أن لا يأخذ لهم صلة ولا يركب لهم دابّة ولا يقبل شهادة من طاف بهم أو من قاربهم، ولا يركب إليهم مهنّيا ولا معزّيا، فأجابه إلى هذا إسماعيل وقبل شرطه[2].

فهذا النصّ يثبت أنّ الفاطميين نصّبوا هذا المالكيّ قاضيا عندهم رغم معاداته لهم بل مجاهرته بذلك كما يظهر من شروطه المجحفة لقبول القضاء، فأين هذا من دعوى بعض المؤرّخين: وأمر الفقهاء أن لا يفتوا ولا يكتبوا وثيقة إلاّ من تشرّق[3].

فلو كانوا يريدون فرض مذهبهم بالقوّة لحصروا القضاء بيد أصحابهم ولما مكّنوا أحدا من غيرهم من هذا المنصب.

الثالثة: إنّ من يقرأ في بعض نصوص التاريخ التي تحدّثت عن سياسة الدولة الفاطميّة يجد أنّها أعطت مساحة كبيرة من الحريّة لبقيّة المذاهب الأخرى، وقد أثبت المؤرّخون –أصحاب فرية فرض المذهب

([1]) نهاية الأرب 117/28.

([2]) معالم الإيمان 44.

([3]) رياض النفوس 56/2.

الشيعي بالقوّة- هذه المساحة من حيث لا يدرون!

فقد نقلوا أنّ علماء القيروان كانوا يجاهرون بعداء حكومة الفاطميين بل كانوا يناظرون دعاتهم في مسائل حسّاسة، وقد نقل لنا القاضي عياض بعض المقتطفات من أحداث تلك الحقبة ننقل منها هذه الصورة: قال في ترجمة ابن التبّان: كان أبو محمد **شديد التنقيض لهم والتنفير عنهم**، قال بعض أصحابه: كنت معه يوماً بالمنستير، وكان يوم عاشوراء. فلما رأى بكى. فقيل له ما يبكيك؟ فقال والله ما أخشى عليهم من الذنوب، لأن مولاهم كريم، **وإنما أخشى أن يشكّوا في كفر بني عبيد**، فيدخلوا النار. قال ابن ادريس: كنت معه، فجرى ذكر صلاة الجمعة مع خطباء بني عبيد، فقال خلف، قال: لا، قيل له بنو عبيد أشرّ من هؤلاء. وكان الخطباء يدعون لهم، وكان كثيراً ما يقول: **اللهم العنهم، ما أقام أمرهم، وما صرفه، وعلّق اللعنة عليهم، كتعليق القلائد في أعناق الولائد**. وكان عبد الله المعروف بالمحتال، صاحب القيروان، شدّ في طلب أهل العلم، ليشرّقهم، فطلب الشيخ أبا سعيد ابن أخي هشام، وأبا محمد التبّان وأبا القاسم بن شبلون، وأبا محمد ابن أبي زيد، وأبا الحسن القابسي، رضي الله عنهم، فاجتمعوا في مسجد ابن اللجام واتفقوا على الفرار، فقال لهم ابن التبّان: أنا أمضي إليه، وأكفيكم مؤونة

الاجتماع، ويكون كل واحد منكم في داره، ويقال إنهم أرادوا السير إلى عبد الله، فقال لهم: أنا أمضي إليه، أبيع روحي من الله دونكم، لأنكم إن أتي عليكم، وقع على الإسلام وهن، ويقال إنّه قال لعبد الله: لما دخل عليه جئتك عن قوم إيمانهم مثل الجبال، أقلّهم يقيناً أنا. فحدث بعض من حضر، قال: كنت مع عبد الله، وقد احتفل مجلسه بأصحابه، وفيهم الداعيان: أبو طالب، وأبو عبد الله. لعنهم الله. وقد وجه إلى ابن التبان، فإذا به داخل، وعيناه توقدان، كأنهما عينا شجاع، فدخل وسلم، فقال: أبطأت عنا يا أبا محمد. فقال: في شغلك، كتاب ألّفته في فضائل أهل البيت الساعة، أتاني به المجلد، ودفعه إليّ. فقال: يا أبا محمد ناظر هؤلاء الدعاة. قال: في ماذا؟ قال في فضائل أهل البيت. فقال لهما: ما تحفظان في ذلك، فقال له أبو طالب: أنا أحفظ حديثان[1]-ولحن- ثم سأل الآخر، فقال له: وأنا أحفظ حديثان. فقال فيما ذان الحديثان اللذان تحفظ أنت؟ فقال له: هما يحفظان حديثان -ونطق بلحنهما- وأنا أحفظ في ذلك تسعين حديثاً، فأولى بهما الرجوع إلي، ثم قال عبد الله: يا أبا محمد، من أفضل أبو بكر أو عليّ؟ قال: ليس هذا موضعه. فقال: لابدّ،

([1]) لم نصلح الأخطاء اللغوية في هذا الاقتباس وغيره، توخيا للأمانة العلمية، فتركناها كما وردت في الأصل.

فقال: أبو بكر أفضل من علي. فقال عبد الله: أيكون أبو بكر أفضل من خمسة، جبريل عليه السلام سادسهم؟ فقال أبو محمد: أيكون عليّ أفضل من اثنين، الله ثالثهما؟ إني أقول لك ما بين الوجهين، وأنت تأتيني بأخبار الآحاد. فضاق عبد الله، وقال: فمن أفضل عائشة أو فاطمة. فقال له: هذا آخر، سؤالك الأول؟ قال: لابد، قال: عائشة رضي الله عنها، وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من فاطمة. قال: من أين؟ فقال له قال الله تعالى: "يا نساءَ النبيّ لستنّ كأحدٍ من النساء، إن اتقيتُنّ. فيقال، إن بعض الدعاة قال له في هذه المسألة. أيهما أفضل، امرأة أبوها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأمها خديجة الكبرى، وزوجها علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولداها الحسن والحسين، سيدا شباب أهل الجنة، أو امرأة، أمها أم رومان وأبوها عبد الله ابن أبي قحافة؟ فقال له أبو محمد: أيهما أفضل عندك، امرأة إذا طلقها زوجها، أو مات عنها تزوجها عشرون زوجاً؟ أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحلّ لأحد؟فيحكى، أن أبا عبد الله قال له: يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنين، ومن يوثق بك، أدخل العهد وخذ البيعة، فعطف عليه أبو محمد وقال له: شيخ له ستون سنة، يعرف حلال الله وحرامه، ويرد على اثنين وسبعين فرقة، يقال له هذا؟

لو نُشِرتُ بين اثنين، ما فارقت مذهب مالك فلم يعارضه، وقال لمن حوله: امضوا معه. فخرجوا ومعهم سيوف مصلتة، فمر بجماعة من الناس ممن أحضر، لأخذ الدعوة. فوقف عليهم فقال: تثبتوا ليس بينكم وبين الله عزّ وجلّ إلا الإسلام، فإذا فارقتموه هلكتم، فترك عبد الله طلب بقية الشيوخ، بعد ذلك المجلس[1].

وهذا الكلام المتقدّم نقلته بطوله لاشتماله على عدّة فوائد:

- منها أنّ المعارضة لبني عبيد كانت متاحة بحيث كان مثل ابن التبّان يسبّهم ويلعنهم ويشتمهم دون أيّ عقوبة منهم.
- ومنها أنّ الفاطميين قد سعوا إلى تشييع طلبة العلم لكن بالمناظرة والاحتجاج وليس بالسيف.
- ومنها أنّ الفاطميّ هو الذي عرض على ابن التبان المناظرة مع دعاته ممّا يبيّن أنّ هذا هو دأب القوم.
- ومنها أنّ الأجواء كانت حرّة في المناظرة والبحث العلمي بحيث يمكن للمناظر أن يعبّر عن رأيه بكلّ حريّة ودون أيّ ضغوطات.
- ومنها أنّ ابن التبّان بعد كلّ ما تقدّم صرّح ببقائه على

([1]) ترتيب المدارك 255/6.

مذهبه ولم يعترض عليه الفاطميّ كما هو صريح نصّ القاضي عياض.

هذا غيض من فيض، ومن يقرأ كتب التراجم والطبقات سيجد الكثير من مناظرات ومحاججات علماء أهل السنّة للفاطميين التي نقلت على أنّها مآثر ومناقب لهم، والحال أنّها أفضل دليل على الحريّة المذهبيّة التي أتاحتها لهم الدولة الفاطميّة.

والذي يزيدنا إيمانا بما ذكرناه الأمان الذي وقّعه القائد "جوهر الصقلّي" لأهل مصر والذي فيه: وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه (ص)وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصيّة من المتوفى بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال، **وأن أتقدم في رمّ مساجدكم، وتزيينها بالفرّ والإيقاد، وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم**، وأدرها عليهم، ولا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلّا من بيت المال، لا بإحالة على من يقبض منهم، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا ما ذكره من ترسل عنكم أيدهم الله، وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنّكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم، وتطمينا

لأنفسكم، وإلّا فلم يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنّة واحدة، وشريعة متّبعة، **وهي إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم**، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجرى الأذان، والصلاة، وصيام شهر رمضان وفطره، وقيام لياليه، والزكاة، والحج، والجهاد على أمر الله وكتابه، وما نصه نبيه (ص) في سنته، واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه[1].

فهذه وثيقة صريحة في أنّ الدولة الفاطميّة كانت تتيح الفرصة للمذاهب الإسلاميّة الأخرى وتسمح لهم بحفظ معتقدهم وممارسة شعائرهم الدينيّة، فأين هذا من ذاك؟!

بعد ملاحظة هذه الأمور يصعب جدّا التصديق بما ذكره بعض المؤرّخين من إجبار أهل البلاد على التشيّع، وما ذكر لا يعدو كونه حلقة من حلقات الصراع الإعلامي الذي تقتضيه السياسة كما تقدّم في

([1]) اتّعاظ الحنفاء 104/1.

الفصول السابقة بعض صوره، خصوصا مع ملاحظة أبطال هذه الفرية من المؤرّخين الذين كانوا مقرّبين من أعداء الفاطميين كالصنهاجيين في المغرب والعباسيين ومن بعدهم الأيوبيين في المشرق.

باء تجرّ وباء لا تجرّ:

العجيب أنّ كلّ من يتحدّث عن فرض الفاطميين للتشيّع في بلاد المغرب، يغمض عينيه عن فرض العباسيين للتسنّن تحت وطأة السيف، رغم أنّنا ننفي الأمر الأوّل كما قدّمنا ومخالفونا لا ينكرون الأمر الثاني بل يثبتونه ويفتخرون به إلى يومنا هذا!

فقد نقل المؤرّخون أنّ الخليفة القادر بالله قد كتب اعتقادات "أهل السنّة والجماعة" وحمل الناس عليها حملا، وأجبر كلّ من خالفها على البراءة من معتقداته أو القتل:

قال ابن كثير الدمشقي: وفي سنة ثمان وأربعمائة استتاب القادر بالله الخليفة فقهاء المعتزلة، فأظهروا الرجوع وتبرأوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم بذلك، **وأنهم متى**

خالفوا أحلّ فيهم من النكال والعقوبة ما يتّعظ به أمثالهم، وامتثل محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك واستنّ بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خراسان وغيرها، **في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبّهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم**، وأمر بلعنهم على المنابر، وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم عن ديارهم، **وصار ذلك سنة في الإسلام**[1].

وفي مورد آخر: وفي هذا اليوم جمع القضاة والعلماء في دار الخلافة، وقرئ عليهم كتاب جمعه القادر بالله، فيه مواعظ وتفاصيل مذاهب أهل البصرة، وفيه الردّ على أهل البدع، وتفسيق من قال بخلق القرآن، وصفة ما وقع بين بشر المريسي وعبد العزيز بن يحيى الكتاني من المناظرة، ثم ختم القول بالمواعظ، والقول بالمعروف والنهى عن المنكر، وأخذ خطوط الحاضرين بالموافقة على ما سمعوه، وفي يوم الإثنين غرة ذي القعدة جمعوا أيضا كلهم وقرئ عليهم كتاب آخر طويل يتضمن بيان السنة والرد على أهل البدع ومناظرة بشر المرسي والكتاني أيضا،

(1) البداية والنهاية 8/12.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضل الصحابة، وذكر فضائل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولم يفرغوا منه إلّا بعد العتمة، وأخذت خطوطهم بموافقة ما سمعوه، **وعزل خطباء الشيعة، وولّى خطباء السنة ولله الحمد والمنة على ذلك وغيره**[1].

وهذه الحادثة هي من أصرح الأدلّة على أنّ الدولة العبّاسيّة كانت تقصي كلّ من خالف مذهبها الرسمي بحيث تجاوز الأمر مجرّد الإبعاد عن المناصب الدينيّة إلى التقتيل والتشريد والتنكيل، والعجيب أنّ ابن كثير يفتخر بهذا الأمر فاعتبره من سنن الإسلام كما في النص الأوّل، وحمد الله عليه في النص الثاني ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

أين الحقيقة؟!

قد يطرح القارئ هذا الأسئلة:

ما هو التقييم الصحيح للدولة الفاطميّة؟

وهل ننزّه هذه الدولة عن كلّ ما نسب إليها؟

---

(1) البداية والنهاية 34/12.

وماذا عنّ الكمّ الهائل من الفظائع والجرائم المسطّرة في التاريخ؟

والجواب أنّني دَفَعْتُ شيطنة المؤرّخين لهذه الدولة حتّى جعلوها أسوأ الدول التي قامت في الإسلام بل فضّل بعضهم دول الكفر عليها، ولم أنزّه هذه الحكومة عن كلّ ما نسب إليها من تهم، والمشكلة أنّ هذه الدولة وقعت بين تطرّفين:

- أعداء هذه الدولة السياسيين من العباسيين والأيّوبيين والصنهاجيين ومن تابعهم في عدائهم، الذين دفعوا لمؤرّخي بلاطهم فصوّروا هذه الدولة بأبشع الصور[1].
- أحبّاء هذه الدولة وأولياؤها الذين جعلوها دولة العدل الإلهي بحيث صوّروا حكّامها وولاتهم كالملائكة التي تمشي على الأرض وغضّوا الطرف عن سلبياتها.

والحقّ أنّه لا يمكن أن ننكر الإيجابيات الكثيرة جدّا لهذه الدولة والتي اعترف بها كلّ من كتب بتجرّد وموضوعيّة عن هذه

([1]) ومن هنا لابدّ من إعادة قراءة تاريخ الدولة الفاطميّة من خلال المصادر المحايدة لا من خلال ما كتبه أعداؤها، فمثلا من الأمور التي يتّهم بها الفاطميّون ادّعاؤهم النبوّة بل الألوهيّة كما نقلت بعض المصادر التاريخيّة ذلك، في حين أنّنا لو رجعنا إلى كتاب "المجالس والمسايرات" للقاضي النعمان نجد نفيا قاطعا من المعزّ لدين الله الفاطمي لهذا الأمر بل لعنه لكلّ من يدّعي فيهم هذا الادّعاء واعتباره من الكذّابين والمفترين عليهم.

الإمبراطوريّة، فلو رجعنا إلى تقييم المؤرّخ العالمي المعروف ويل ديورانت نجده يعترف بتسامح الفاطميين فيقول: كان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيّراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات، ومن ترف وإتلاف، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال، ومن العدد المطلوب من الحروب؛ وكان يضارع في رخائه وثقافته أي عهد آخر في تاريخ مصر[1].

ويقول في الجانب الاقتصادي الذي عمّ تونس والشمال الإفريقي: واستعاد شمال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء في أيام مجد قرطاجنّة تحت حكم الرومان[2].

أمّا عن مصر فقال: وعمّ الرخاء مصر رغم ما كان يخصّ به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوربا وآسية، وازداد عدد السفن التي ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي والبحر الأحمر والنيل إلى مصر، واضمحلت ثروة بغداد، وضعفت قوتها بينما زاد سلطان القاهرة وثراؤها وقد زار ناصري خسرو العاصمة الجديدة في عام

([1]) قصّة الحضارة 268/13.

([2]) قصّة الحضارة 266/13.

1047 وجاء في وصفه لها أنّ بها عشرين ألف بيت، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس طبقات أو ست، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب، والجواهر، والأقمشة المطرزة، والحرير إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس فيه، وكانت الشوارع الكبرى مظلّلة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل. وكانت الحكومة تحدّد الأثمان، وتقبض على من يبيع بأغلى منها، ويطاف به في شوارع المدينة على جمل، وهو يدقّ بيدهِ ناقوساً ويعلن بنفسه جرمه[1].

أمّا عن سلبياتها فهي كغيرها من الدول التي مرّت على الإسلام يتفاوت عدل حكّامها وحسن تدبيرهم بحيث لا يمكن إعطاء حكم واحد على كلّ المدّة الزمنيّة التي حكمتها هذه الدولة القويّة.

تونس شيعيّة:

المحصّلة التي لابدّ أن يخرج بها القارئ من هذه الصفحة المشرقة من تاريخ تونس وما قبلها من الصفحات هي أنّ التشيّع قد دخل تونس طوعا منذ أوائل القرن الثاني للهجرة، ولم تكن الدولة الفاطميّة إلّا مرحلة من مراحل التشيّع التونسي لا أنّها قطب رحاه بحيث يندثر هذا

---

(1) قصّة الحضارة 267/13.

المذهب بمجرّد سقوط الدولة، بل ما دخل القلوب بالدليل والبرهان وبالحجّة والبيان لا يمكن أن يخرج لمجرّد نزاع سياسيّ أو تغيير حكوميّ.

وقد شهد ابن عذاري بهذه الحقيقة المجهولة عند الكثير حيث قال: وكانت **أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة**، من وقت تملّك عبيد الله المهدي لها[1].

وبالتالي فإنّ الأسئلة التي لابدّ أن نطرحها في ختام هذا الفصل هي:

أين اختفى التشيّع في تونس؟

ولماذا اندثر بمجرّد استقلال تونس عن الحكم الفاطمي؟

وهل من المعقول أن يغيّر كلّ الناس مذهبهم تبعا لتغيّر الحكم؟

---

(1) البيان المغرب 273/1.

الصفحة السوداء: كيف اندثر التشيّع؟

نصل الآن إلى أهمّ مرحلة من تاريخ تونس بل أخطر منعطف مرّت به هذه البلاد الطيّبة وهي مرحلة اندثار التشيّع فيها، وقد عبّرت عن هذه المرحلة بـ"الصفحة السوداء" لأنّها من أكثر المحطّات التاريخيّة ظلمة، فهي المحطّة التي اصطبغت بلون الدماء التي سالت فأصبحت بركا وأنهارا وصارت مضربا للمثل في التاريخ.

انتقال الفاطميين لمصر:

كانت تونس هي مركز الدولة الفاطميّة من سنة 297هـ إلى أن فتحت مصر وأعدّت لانتقال مركز الخلافة، وبالفعل فقد ترك الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله تونس وانتقل إلى مصر في سنة 361هـ عاصمته الجديدة، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الخلافة الفاطميّة، أمّا تونس فقد عيّن عليها رجلا صنهاجيّا اسمه "بلكين بن زيري" ليكون حاكما لها ومديرا لشؤونها تحت ظلّ الخلافة الفاطميّة، ومن هنا رجعت تونس مرّة أخرى إلى البربر سكّانها الأصليين ليكون لهم حكمهم الذاتي.

وبقي الحال مستتبّا إجمالا إلى زمن "المعزّ بن باديس الصنهاجي" حفيد "بلكين بن زيري" والذي تولّى الحكم في سنة 406هـ حيث قرّر الاستقلال عن الدولة الفاطميّة والقطيعة معها والدخول تحت سلطان بني العبّاس، ولكن مثل هذا الانتقال ليس بالأمر الهيّن لكونه انتقالا من النقيض إلى النقيض، فالدولة العباسيّة قد أجرت أنهارا من دماء العلويين وأئمّة العترة الطاهرة من بني فاطمة (ع)، وقد مرّ بنا ما ذكره المولى إدريس في خطبه ورسائله من جرائم هذه الدولة في حقّ أهل البيت النبوي، وبالتالي فإنّ الوجدان الشيعي لن يقبل مثل هذا القرار وإن كان الأمر مجرّد تبعيّة سياسية.

ولعلّ ابن باديس ومن كان معه من الوزراء على علم بأنّ تشيّع تونس سيكون عائقا أمام هذا الانتقال، فلذلك صبغ دعوته بصبغة مذهبيّة ورفع راية طائفيّة وجعل الأمر يظهر في شكل حميّة دينيّة، فكان أن أعلن تسنّنه وترك التشيّع الذي كان مذهب آبائه وأجدادهم، بل أعلن حربا على الشيعة والتشيّع في تونس والذين كانوا أغلبيّة كما قدّمنا، ومن هنا دخلت لتونس ولأوّل مرّة في تاريخها حربا أهليّة ذات صبغة دينيّة طائفيّة انتهت بأكبر عمليّة تطهير عرقيّ استهدف الشيعة، بل يمكن أن نقولها بصراحة أنّ الأمر كان إبادة واستئصالا للوجود

الشيعي برمّته!

فكانت الشرارة الأولى رفعه لشعار سنيّ في محفل عامّ إعلاناً منه ببدء التحوّل الكبير والذي صاحبه سيل من الدماء، قال ابن خلدون: وكانت أذن المعز بن باديس صاغية إلى مذاهب أهل السنة وربما كانت شواهدها تظهر عليه، وكبا به فرسه في أول ولايته لبعض مذاهبه **فنادى مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر وسمعته العامة فثاروا بالرافضة وقتلوهم** وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حي على خير العمل[1].

فهذه الحادثة كانت بداية عمليّة إبادة جماعيّة نقل المؤرّخون تفاصيلها:

الإبادة برواية ابن بسّام (542هـ):

يعتبر كتاب ابن بسّام الشنتريني المعروف بـ"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" من أقدم المصادر التاريخيّة التي أثبتت حادثة إبادة الشيعة في تونس، حيث أنّ هذا المؤرّخ قد توفي في سنة 542هـ في حين أنّ حوادث القتل الجماعي قد اندلعت شرارتها الأولى سنة 407هـ

---

(1) تاريخ ابن خلدون 13/6.

واستمرت إلى قرابة سنة 440هـ، وهذا ما يجعلنا نطمئّن بصحّة هذا النقل لكون المؤلّف قد أدرك يقينا من أدرك هذه الحادثة.

قال في كتابه الذخيرة عند حديثه عن المعزّ بن باديس: حتى انتهت منهم إلى المعز بن باديس، منزف العشيرة، وآخر ملوكها المشهورة، فأول ما افتتح به شانه، وثبت به -زعم- سلطانه، **قتل الرافضة** ومراسلة أمير المؤمنين ببغداد فبعث إليه بعهده، وجاءت الخلعة واللقب من عنده[1].

وقيمة هذا النص- بالإضافة لما أشرنا له مسبقا- هو نسبة قتل الشيعة للمعزّ بن باديس وتحميله المسؤوليّة الكبرى، لأنّه كما سيأتينا أنّ مجموعة من المؤرّخين قد حاولوا تبرئة المعزّ ابن باديس من ذلك ونسبوا هذا الفعل إلى رعاع الناس.

الإبادة برواية القاضي عياض (544هـ):

من المصادر المهمّة لمذابح الشيعة بتونس كتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" للقاضي عياض اليحصبي، وتكمن أهميّة هذا المصدر فيما ذكرناه سابقا من كونه قريب العهد جدّا بالحادثة حيث نقطع بلقائه بمن أدركها خصوصا وأنّه كان من بلاد المغرب وكثير

(1) الذخيرة 614/8.

التنقّل بين أقطارها، والأمر الآخر الذي يزيده أهميّة هو نقله للحادثة مفصّلة لا مجملة كما سبق في نقل ابن بسّام.

قال القاضي عياض: ولما قتلت الرافضة سنة سبع وأربعمائة، وكان ابتداء ذلك يوم الجمعة منتصف محرم مفتتحها، وهو يوم كان وصول المعزّ بن باديس إلى القيروان فيه، بعد موت أبيه واستفتاح ولايته، **فقتلت العامّة الرافضة أبرح قتل بالقيروان، وحرقوهم وانتهبوا أموالهم وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم وجرّوهم بالأرجل**، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وقيل إنّ عامل القيروان منصور بن رشيق كان يمشي كأنّه يسكن الناس وهو يشير على العامّة، وأفتق الأمر فلم يقدر السلطان على ضبطه وولي عاملاً آخر فتعذر عليه سدّه، **وخرج الأمر عن القيروان إلى المهدية وسائر بلادهم، فقتلوا حيث وجدوا وأحرقوا بالنار فلم يترك أحد منهم بمدن إفريقية وأعمالها إلّا من اختفى**، ولجأت الرافضة إلى مساجد البادية **فقتلوا فيها أبرح قتل** وهدموا دار الإمارة بالمنصورة، **وتعدّت العامّة ذلك إلى جماعة من أهل السنة من غيرهم!** فلقد حكي أن العامة جاءت تتعلق برجل منهم اتهموه برأيهم فمرّوا به على شيخ من العامة فسألهم عن تعلّقهم به، فقالوا نسير به إلى الفقيه أبي علي ابن خلدون فنأخذ عليه بما يأمرنا به،

فقال لهم الشيخ العامي لم لا تقتلوه الآن فإن كان رافضياً أصبتم وإن كان سنياً عجلتم بروحه إلى الجنة من الآن؟ أو كما قال، وحكي أنّه رئي يتبع واحدا منهم ليقتله، فقيل له ما تصنع؟ فقال هذا زنديق يفضّل علي ابن الخطاب على عمر بن أبي طالب أو كما قال بلفظ العامي، فانتقم الله منهم على أيدي عامة المسلمين وقتلوهم كل مقتل[1].

وهذا النصّ قد أوضح حقيقة الحال بما لا يحتاج إلى مزيد بيان، لكن أهمّ ما فيه هو أنّ القتل كان أمرا بيد العوام فهم يقتلون من يشاؤون ولذلك قتل حتّى من كان من أهل السنّة والجماعة على الشبهة، بل كان من لا يميّز بين عمر بن الخطّاب وعلي بن أبي طالب يمارس القتل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم!

وقد نقل القاضي عياض نصّا آخر يبيّن لنا حالة التشدّد التي كان عليها الفقهاء حيث قال: كان الشيخ أبو إسحاق، قد امتحن مع فقهاء القيروان، محنة عظيمة في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. وذلك أنه استفتى **في تدمية ما عداه،** في مراجعة عقدها ولي من العبيديين، وذلك بعدما جرى عليهم ما جرى بالقيروان، وقيام المسلمين عند ولاية المعزّ بن باديس، صاحبها عليهم، **وتقتيلهم كل مقتل**، واستنصار المعزّ في ذلك،

(1) ترتيب المدارك 107/7.

فرد الفقيه أبو إسحاق في بعض جوابه أنّ هذه الفرقة على ضربين: أحدهما كافر، مباح الدم، والضرب، والآخر الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة، لا يلزمهم الكفر، ولا تبطل نكاحاتهم، وشاعت فتواه فأنكرها فقهاء إفريقية بالقيروان، وغيرها. وكانوا من التشدد على هذه الفئة المارقة، وكل من يتعلق بهم، حيث كانوا. والعامة أشد من ذلك. لاسيما بظهورهم عليهم، وبغضهم فيهم، وأرسلوا إلى أبي إسحاق، في معاودة النظر، وأن يرجع، فأبى إباء شديدا فخالف الجميع، واستحقر مخالفته، وانتهت القصة إلى السلطان المعزّ، فجمعهم بعض الجمع عنده في المقصورة، وناظروه. فأظهر الإنابة إلى قولهم، والرجوع إليهم، ثم خلا بأصحابه، فأنكروا عليه، رجوعه، عن قولهم، وأنه الحق الذي لا يجب سواه، وكان رأي الفقهاء، سدّ هذا الباب للعامة على هذه الكفرة، وأنّ بني عبيد زنادقة، وأنّ الداخل في دعوتهم، وإن لم يقل بقولهم، كافر لتولّيه الكفرة[1].

وهذا النص يكشف لنا تشدّد فقهاء القيروان الذين كانت لهم اليد الطولى في هذه المذابح، فقد كانوا يكفّرون كلّ من ارتبط بدولة الفاطميين بأيّ نحو من الأنحاء، بل كان يكفي تفضيل الإمام عليّ بن

([1]) ترتيب المدارك 60/8.

أبي طالب على باقي الصحابة لتكون مباح الدم عندهم!

الإبادة برواية ابن الأثير (630هـ):

نقل ابن الأثير الإبادة التي شهدتها تونس في كتابه الموسوم بـ"الكامل في التاريخ" وفصّل في بعض أحداثها حيث قال: في هذه السنة -407هـ- في المحرم **قتلت الشيعة بجميع بلاد أفريقيّة**، وكان سبب ذلك أنّ المعزّ بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلّمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل: هؤلاء رافضة يسبّون أبا بكر وعمر، فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر؛ فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلي من القيروان وهي تجتمع به الشيعة **فقتلوا منهم وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعا في النهب وانبسطت أيدي العامة في الشيعة** وأغراهم عامل القيروان وحرّضهم، وسبب ذلك أنّه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أن المعزّ بن باديس يريد عزله، فأراد فساده **فقتل من الشيعة خلق كثير وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم وقتلوا في جميع أفريقية** ، واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قريب القيروان فتحصّنوا به فحصرهم العامة وضيّقوا عليهم، فاشتدّ عليهم الجوع فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم **حتى قتلوا عن**

آخرهم، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع **فقتلوا كلّهم**، وكانت الشيعة تسمى بالمغرب المشارقة نسبة إلى أبي عبد الله الشيعي وكان من المشرق، وأكثر الشعراء ذكر هذه الحادثة فمن فرح مسرور ومن باك حزين[1].

وهذا النصّ مؤكّد لما نقله القاضي عياض مع إضافة بسيطة وهي أنّ هناك فئة من الشعراء قد أظهروا فرحهم وسرورهم بما جرى على الشيعة، وهذا ما سيأتي تفصيله في النصوص القادمة.

الإبادة برواة ابن عذاري (695هـ):

يعتبر ابن عذاري أوسع من أرّخ لهذه المذابح وأكثر من نقل تفاصيلها الدقيقة، وقد تعرّض لها في أكثر من موضع في كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب":

قال في أحداث سنة 407هـ: وكان بمدينة القيروان قوم بحومة تعرف بدرب المعلّى، يتسترون بمذهب الشيعة، من شرار الأمة، فانصرف العامّة إليهم من فورهم، **فقتلوا منهم خلقا رجالا ونساء، وانبسطت أيدي العامة على الشيعة، ونهبت دورهم وأموالهم وتفاقم**

(1) الكامل في التاريخ 295/9.

الأمر، وانتهى إلى البلدان، فقتل منهم خلق كثير، وقتل من لم يعرف مذهبه بالشهيّة لهم[1]، ولجأ من بقى بالمهدية منهم إلى المسجد الجامع، **فقتلوا به عن آخرهم رجالا ونساء**، واجتمعت العامة على أبي البهار بن خلوف لشدّته عليهم وقهره لسفهائهم، فلجأ إلى المنصورية، فانتهبوا داره، وبلغ ذلك عساكر ابن أخيه، فركب لينصر عمه أبا البهار، فقتلته العامة ومثلوا به، وقتلوا كل من كان معه، وزحفوا إلى المنصورية فهدموها،**واجتمع بدار محمد بن عبد الرحمن نحو ألف وخمسمائة رجل من الشيعة، فإذا خرج أحد منهم لشراء قوته قتل حتى قتل أكثرهم**، ثم أخرجوا إلى قصر السلطان بعيالهم وأطفالهم، فسرّ المسلمون بما رأوه فيهم، وذلك لما ظهرت الكتب التي وجدت في ديار المسالمة، كان فيها من الكفر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيء كثير، فتحصّنوا في هذا القصر أواخر جمادى الأولى وجمادى الثانية[2].

ونقل حادثة أخرى في أحداث سنة 407هـ: خرجت طائفة من الشيعة نحو مائتي فارس بعيالهم وأطفالهم يريدون المهدية للركوب منها إلى صقلية، وبعث معهم خيل تشيّعهم فلما وصلوا إلى قرية كامل،

([1]) يعني أنّ القتل كان حبّا في القتل لا لشيء آخر.

([2]) البيان المغرب 268/1.

وباتوا بها، تنافر أهل المنازل عليهم، **فقتلوهم وفضحوا بعض شوابّ النساء**[1] **ومن كان منه جمال ثم قتلوهن**، وفيها كان بأفريقية غلاء كثير وحروب كثيرة[2].

وفي موضع آخر نقل المذابح بصورة مفصّلة تجمع كلّ ما تقدّم: فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلّى في زينته وحشوده، وهو غلام فكبا به فرسه، فقال عند ذلك: أبو بكر وعمر! فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، **ووضع السيف في الشيعة، فقتل منهم ما ينيف على ثلاثة آلاف، فسمي ذلك الموضع بركة الدم إلى الآن**، قال أبو الصلت: وصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت، فقتلوا في سائر بلاد أفريقية، فوافق ذلك ما قاله الشعراء فيهم على وجه التطهير لهم، كقول القاسم بن مروان (وافر):

وسوف يقتلون في كلّ أرض كما قتلوا بأرض القيروان

وكقول الآخر (رمل):

يا معزّ الدين عش في رفعة وسرور واغتباط وجذل

([1]) أي أنّه تمّ اغتصاب النساء!

([2]) البيان المغرب 269/1.

أنت أرضيت النبيّ المصطفى وعتيقا في الملاعين السفل
وجعلت القتل فيهم سنّة بأقاصي الأرض في كلّ الدول

وكقول آخر (طويل):

وكانت لهم بالشرق نار فأطفئت فما ملكوا بالكفر شرقا ولا غربا

وحكي في قتل الروافض حكايات كثيرة مما رآه المعز في منامه، وتأويل ذلك وغيره ألغيناه هنا عن ذكره[1].

ولك يا أخي القارئ أن تتخيّل عدد القتلى من التونسيين الشيعة بحيث أصبح دمهم كالبركة حتّى سمّي المكان بـ"بركة الدم"، والأعجب من هذا مضمون الأبيات الشعريّة التي تمدح مثل هذه المذابح بل وتشجّع على مثلها في كلّ أرض! وفعلا سيأتيك الخبر أنّ المذابح قد انتقلت للبلدان الأخرى بتشجيع فقهاء تونس.

الإبادة برواية الدبّاغ (696هـ):

نقل الدبّاغ المالكي في كتابه "معالم الإيمان في معرفة القيروان" عدّة قصص متعلّقة بالمذبحة التي حصلت للشيعة في تونس:

([1]) البيان المغرب 274/1.

فقد أجمل القضيّة في أوّل كتابه بقوله:...حتّى كشف الله أستارهم فقتلوا بالعذاب، وبعد ذلك هجم أهل القيروان على هؤلاء الأشرار بعد أن تولّى المعزّ بن باديس، **فقتلوهم على آخرهم وطهّر الله القيروان من رجسهم**، والحمد لله ربّ العالمين[1].

وفي ضمن تراجم كتابه فصّل في القضيّة فقال: لمّا قدم المعزّ بن باديس بعد موت أبيه واستفتاح ولايته وذلك يوم الجمعة منتصف محرّم عام سبعة وأربعمائة، **قتلت العامّة الرافضة بالقيروان أقبح قتل وحرقوهم وانتهبوا أموالهم وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم وجرحوهم**[2] **بالأرجل**، وكانت صيحة من الله سلّطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى المهديّة وساير بلادهم **فقتلوا حيث وجدوا وأحرقوا بالنار فلم يترك أحد منهم بمداين إفريقيّة إلّا من اختفى**، ولجأت الرافضة إلى مساجد المهديّة **فقتلوا فيها**، وهدموا دار الأمارة[3].

كما نقل عين القصّة التي ذكرها القاضي عياض: فلقد حكي أنّ العامّة جاءت متعلّقة برجل اتهموه برأيهم فمرّوا به على شيخ من العامّة فسألهم عن تعلّقهم به فقالوا: نسير به إلى الشيخ أبي علي بن خلدون

([1]) معالم الإيمان 25/1.

([2]) الظاهر أنّ العبارة فيها تصحيف والصحيح "جرّوهم".

([3]) معالم الإيمان 152/3

فننظر ما يأمرنا به، فقال لهم الشيخ العاميّ: لا اقتلوه الآن، فإن كان رافضيّا أصبتم وإن كان سنيّا عجلتم بروحه إلى الجنّة الآن[1].

فنحن إذن أمام محاكم تفتيش تونسيّة تضاهي محاكم التفتيش الكنسيّة التي كانت في العصور المظلمة، الفارق الوحيد أنّ الأوروبيّين قد اعترفوا بهذه الجرائم وأبدت الكنيسة ندمها واعتذارها على هذا الفعل، لكن للأسف فإنّ بعض قومنا لازالوا يفتخرون بهذا التاريخ الأسود.

الإبادة برواية التيجاني (بعد 721هـ):

ذكر التيجاني في رحلته المشهورة إشارة إلى المذابح التي حصلت في تونس حيث قال عند حديثه عن أبي الحسن الطرابلسي: وهو أوّل من أظهر السنّة بطرابلس **لمّا كانت في إفريقيّة الوقعة المعروفة بـ"وقعة المشارقة" سنة سبع وأربعمائة قتل فيها الشيعة وأتباعهم**، وعلى يد الفقيه أبي الحسن **كان قتل من قتل بطرابلس منهم**[2].

وهذا النص يعطينا صورة أوضح لهذه الأحداث:

فمن جهة يكشف لنا عن اتساع رقعتها بحيث بلغت أصداؤها إلى طرابلس، فلم تكن مجرّد انتفاضة عابرة في القيروان أو المهديّة بل كانت

([1]) معالم الإيمان 153/3

([2]) رحلة التيجاني 265.

عامّة في كلّ التراب التونسي بحيث تجاوزت الحدود لتصل إلى البلدان المجاورة كطرابلس عاصمة ليبيا اليوم.

بل وصل الأمر حتّى للمغرب الأقصى بعد بضع عقود وتحديدا في سنة 448هـ، قال ابن أبي زرع الفاسي: وكانت بتارودانت قوم من الروافض يقال لهم البجليّة منسوبين إلى عليّ بن عبد الله البجليّ الرافضيّ...فقاتلهم الأمير أبو بكر وعبد الله بن ياسين حتّى فتح مدينتهم عنوة **وقتل بها من الروافض خلق كثير** فرجع من بقي منهم إلى السنّة وأخذ أموال من قتل منهم فجعل فيها للمرابطين وأظهر الله المرابطين وأعلى كلمتهم[1].

ومن جهة أخرى يؤكّد لنا هذا النصّ أنّ الذين قادوا هذه الإبادة هم الفقهاء لا عامّة الناس أو الرعاع كما حاول بعض المؤرّخين إلصاقها بهم وتبرئة غيرهم.

الإبادة برواية النويري (733هـ):

من الذين نقلوا تفاصيل المذبحة النويري في كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب" حيث جعل فيه بابا أسماه "قتل الرافضة" قال فيه: وفي يوم السبت سادس عشر المحرم منها، ركب المعزّ في القيروان و الناس

([1]) الأنيس المطرب 110.

يسلّمون عليه و يدعون له، فمرّ بجماعة فسأل عنهم فقيل:هؤلاء رافضة والذين قبلهم سنّة، فقال: وأيّ شيء الرافضة والسنة؟ قالوا: السنّة يترضّون عن أبي بكر وعمر والرافضة يسبّونهما، فقال:رضي الله عن أبي بكر وعمر، فانصرفت العامّة من فورها إلى الناحية المعروفة بدرب المقلى من مدينة القيروان -وهو موضع يشتمل على جماعة منهم- **فقتلوا منهم جماعة ووقع القتل فيهم، وصادفت شهوة من العسكريين وأتباعهم طمعا في النهب، و انبسطت أيدي العامة فيهم**، فأقبل عامل القيروان يظهر أنه يسكّن الناس، وهو يحرّضهم و يشير إليهم بزيادة الفتنة، لأنّه كان قد أصلح البلد فبلغه أنّه معزول، فأراد إفساده، **فقتل من الرافضة خلق كثير في ديارهم وحوانيتهم، وأحرقوهم بالنار!** وانتهبت ديارهم وأموالهم، **وزاد الأمر و اتصل القتل فيهم في جميع بلاد إفريقية**، وقيل: **إنّ القتل وقع فيهم في جميع المغرب في يوم واحد في المدائن والقرى، فلم يترك رجل ولا امرأة و لا طفل إلا قتل و أحرق بالنار**، و نجا من بقي منهم بالمهدية إلى الجامع الذي بالحصن ، فقتلوا فيه عن آخرهم[1].

ونقل تفاصيل مذبحة أخرى: و لما كان في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة

([1]) بلوغ الأرب 201/24.

خلت من جمادى الأولى، خرج من بقي من المشارقة -وهم الرافضة- إلى قصر المنصور بظاهر المنصورية، وهم زهاء ألف وخمسمائة، وتحصّنوا به فحاصرهم السنة فاشتد عليهم الحصار و الجوع،**فأقبلوا يخرجون و الناس يقتلون منهم ويحرقون إلى أن قتلوا عن آخرهم**، وطهر الله تعالى المغرب منهم[1].

ونقل بعض القصائد التي تمجّد هذه المذبحة وتتشفّى من المقتولين فيها: وعمل الشعراء في هذه الواقعة القصائد، فممّن عمل فيها أبو الحسن الكاتب المعروف بابن زنجي من قصيدة:

شفى الغيظ في طيّ الضمير المكتّم   دماء كلاب حلّلت في محرّم
فلا أرقأ الله الدموع التي جرت   أسى و جوى فيما أريق من الدم
هي المنّة العظمى التي جلّ قدرها   و سارت بها الرّكبان في كل موسم

وأوسع الشعراء في ذلك وقالوا فيه قصائد كثيرة تركناها اختصارا[2].

والحقّ أنّ اللسان يعجز عن التعليق على هذه الجريمة والأعظم منها ما تضمّنته هذه الأبيات التي لم ننقل إلّا جزءا منها من تشفّ وشماتة بقتل النساء والأطفال.

(1) بلوغ الأرب 202/24.

(2) بلوغ الأرب 202/24.

الإبادة بإقرار المعاصرين:

إنّ استفاضة النقولات حول هذه المجزرة وكثرة المصادر التاريخيّة وقربها الزماني من الحدث جعلت الجميع يقرّ بصحّة هذه الأحداث وبحقيقتها ولم أقف إلى الآن على منكر أو مشكّك فيها، بل لم أقف إلّا على مثبت أو مفتخر بهذا التطهير العرقي الذي أصبح يعدّ من أمجاد الأسلاف!

قال عبد العزيز المجدوب: فاشتدّ ساعد المالكيّة بذلك واستجمعوا قوّتهم حتّى وجدوا أنفسهم في عهد المعزّ بن باديس قوّة مكتملة العدّة وافرة العزم والحزم، فأنزلوا بالشيعة الويلات وامتحنوهم شرّ امتحان **وفتكوا بهم في كلّ مكان وجدوا من أرض إفريقيّة** وخصوصا بالقيروان والمهديّة، **وكانت مجزرة هائلة عرفت لدى المؤرّخين باسم "محنة المشارقة" أو "وقعة الشيعة"** وبذلك تمّت السيادة لأهل إفريقيّة وعرفوا لأوّل مرّة طعم العزّة والسيادة في ظلّ التعاليم السنيّة المتمثّلة في مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه[1].

---

(1) الصراع المذهبي بإفريقيّة 244.

الولي الصالح "سيدي محرز"!

بقيت عندنا جزئيّة بسيطة في هذا البحث لابدّ أن نشير إليها وهي الحديث عن شخصيّة بارزة مغروسة في الوجدان التونسي ويعرفها الكبير والصغير كان لها دور كبير في هذه الأحداث التي حصلت في تونس وهي شخصيّة "محرز بن خلف" والذي يلقّب بـ"سلطان المدينة".

فقد ذكر المؤرّخون أنّه كانت له اليد الطولى في إبادة الشيعة في العاصمة تونس، بل كان هو المحرّض الأساسي والقائد الفعلي لعمليّات القتل الجماعي التي نفّذت:

ففي ترتيب المدارك أشار القاضي عياض لهذه الحقيقة عند ترجمته لمحرز بن خلف، قال: هو أبو محمد محرز بن خلف ابن أبي رزين التونسي، المعروف بالعابد. خاتمة صلحاء علماء إفريقية. روى عن أبي إسحاق الدينوري. وكتب إلى الأبهري، ولا أدري لقيه أم لا. روى عنه حاتم، وكان متقشفاً فاضلاً، زاهداً في الدنيا، مجانباً لأهلها، مستجاب الدعوة. **ذكر أنّ أهل تونس لما قتلوا الروافض، القتلة المعلومة، وحدّثوا أنّ محرزاً شيخهم حملهم عليه، وطهّر الأرض منهم**[1].

وكذلك صرّح صاحب "معالم الإيمان" بذلك بقوله: وما تقدّم من قولنا خرج الأمر من القيروان إلى المهديّة وسائر بلادهم خلاف ما كان

---

[1] ترتيب المدارك 264/7.

يقول شيخنا أبو الفضل البرزلي أنّ الوقت الذي قام عليهم فيه أهل القيروان قام كلّ شيخ على من في بلده **كالشيخ محرز على أهل تونس** من غير أن لا يكون اتفاق منهم على ذلك بل هي كرامة في حقّ جميعهم[1]!

وقد نقل التاريخ صورا فظيعة لما فعله هذا الشيخ، حيث ذكروا أنّه نصب محاكم تفتيش لعقائد التونسيين ومعرفة الشيعة منهم لكي ينفّذ عليهم الحكم "العادل" وهو الإعدام! فكان هو الخصم والحكم بل والشاهد أيضا: فلمّا كان سنة ستّ وأربعمائة قتل الناس المشارقة واستأصلوهم فكان يؤتى بالرجل منهم إلى حضرته **فيشهد عليه فيقتل بشهادة الشّيخ خاصة لا يحضر غيره من العدول**، أو يترك إذا لم يثبت عليه شيء[2].

بل نقلوا أنّه كان ينفّذ إعدامات ميدانيّة لمن لا يرتضي عقيدته: سمع في أحد أسواق (القاهرة)* رجلا يسبّ السلف، فأمسك بطرف ثوبه، وصاح: أيّها الناس، إنّي لا أرضى؟ فتهاووا على الرجل حتى تقطع لحمه بين أيديهم وهم يقولون: قال محرز إنّي لا أرضى[3]!

([1]) معالم الإيمان 154/3.

([2]) نزهة الأنظار 368/1.

([*]) هكذا ورد في المصدر (الأعلام 283/5)، وهو اشتباه من المصنّف.

([3]) الأعلام 283/5.

وكان يتمنّى قتل الشيعة في بقيّة التراب التونسي ويدعو الله لتحقّق ذلك: قال أبو محمد: كنت عند المؤدّب محرز **بعد قتله المشارقة بتونس،** فقلت له: قتلوا المشارقة بتونس ولم يقتلوا عندنا، فقال: **أرجو أن يقتلوا عندكم، ثم دعا** لنا وقال: غسل الله عنكم العار وألحقكم بالناس، قال: فوصلت إلى باجة يوم الخميس وقتل المشارقة يوم الاثنين[1].

ومن هنا أصبح "محرز بن خلف" ذا حظوة عند الحاكم الصنهاجي الذي ثنى له الوسادة وأعطاه مفاتيح تونس فأصبح "سلطان المدينة" جزاء على تنكيله بالشيعة وتقتيلهم في أرجائها، وقد حفظ لنا التاريخ بعض رسائل المعزّ بن باديس لمحرز حيث خاطبه بقوله: هذا ظهير كريم من القائم النّاصر لدين الله، المعزّ بن باديس للشّيخ الصالح الكبير القدر محرز بن خلف، لطّف الله به، قصد به وجه الله العظيم، ورجاء ثوابه الجسيم، وما أمر به السّلف المتقدم من إكرام أهل الدّين والعلم، لأن من تبع طريقهم خلص من الشكّ واقتدى، ومن قصد طريقتهم أخرج من الضلالة واهتدى، وأنقذ من الجهالة والردى، فإن القصد أن يؤولوا إلى معرفته ويعرفوا إثبات برهانها، ويراقبوا وحدانيته، ويتحقّقوا حقائق ربوبيّته وجبروته، ويحافظوا على أوليائه[2].

([1]) نزهة الأنظار 368/1.

([2]) نزهة الأنظار 369/1.

وقد نقل في تاريخ "محرز بن خلف" كثير من مواقفه المعادية للشيعة والداعية لقتلهم وإبادتهم طوينا عنها كشحا لكي لا نخرج عن الغرض من تأليف هذا الكتاب وإلّا فالحديث عن هذا الموضوع ذو شجون خصوصا وأنّ الواقع التاريخي يعطينا صورة مباينة تماما لما يوجد في المتخيّل الشعبي.

خلاصة ما تقدّم:

شهدت تونس في بدايات القرن الخامس عمليّة إبادة واسعة وقتل جماعي للشيعة في كلّ أنحائها، حيث اجتمعت الأطماع السياسيّة المتمثّلة في السلطة الحاكمة والحقد المذهبي الذي كان يملأ قلوب فقهاء ذلك الزمان وهمجيّة عامّة الناس لتقوم بهذه الجريمة التي سوّدت تاريخ تونس وأصبحت وصمة عار على جبين مرتكبيها، وكان من أهمّ نتائجها حصول تحوّل في التركيبة السكّانيّة لتونس حيث أصبح الشيعة أقليّة متخفيّة بعد أن كانوا أكثريّة[1].

([1]) إنّ المذابح التي حصلت في تونس هي التي ألهمت صلاح الدين الأيّوبي الذي قام بنفس الدور في مصر وأباد الفاطميين وشيعتهم ولم يبق منهم أحدا، بل أحرق حتّى كتبهم ودمّر قصورهم، فإنّا لله وإنّ إليه راجعون.

الصفحة الأخيرة: التشيّع المعاصر

كلّ ما تقدّم من هذا الكتاب كان تصفّحا في تاريخ تونس وغوصا في أعماقه، لكنّ السؤال المهمّ اليوم والذي يتكرّر طرحه في الساحة الفكريّة والاجتماعيّة هو عن حقيقة الوجود الشيعي في هذه الأيّام، فهل هناك شيعة في تونس؟ وإن كان الجواب نعم فهل تشيّعهم أصيل أم دخيل؟

ما بعد الإبادة:

انتهينا في الفصل السابق إلى أحداث القرن الخامس للهجرة الذي افتتحه "المعزّ بن باديس" بتلك المجازر العنيفة ضدّ الشيعة، وقد أشار المؤرّخون إلى حقيقة تاريخيّة مهمّة وهي: إخفاء من بقي من الشيعة لمذهبهم وعدم الجهر بحقيقة معتقدهم وممارساتهم الدينيّة.

قال القاضي عياض: وخرج الأمر عن القيروان إلى المهدية وسائر بلادهم، فقتلوا حيث وجدوا وأحرقوا بالنار فلم يترك أحد منهم بمدن إفريقية وأعمالها **إلّا من اختفى**[1].

ومن باب الحفاظ على الأرواح دخل الشيعة في تونس مرحلة

([1]) ترتيب المدارك 107/7.

"التقيّة" حيث قاموا بمجاراة الحالة العامّة فأظهروا التسنّن وأخفوا التشيّع خوفا من الأسوأ، ومع مرور الزمن انصهر أبناؤهم وأحفادهم في مجتمعاتهم ولم يبق من تشيّعهم سوى بعض الممارسات التي أصبحت تعدّ اليوم من عادات وتقاليد بعض المناطق كبعض طقوس يوم عاشوراء والأناشيد الفولكلوريّة بل حتّى بعض العادات المتعلّقة بالمأكل والملبس والزواج وغيرها.

ولو تتبّعنا التراث التونسيّ لوجدنا الكثير من آثاره الولاء الصادق لأهل البيت (ع)، لكن أهمّ ما بقي من آثار هذا التشيّع التاريخي -الذي استأصلوه بقوّة السيف- عشقٌ جارفٌ يجده التونسيّ في أعماقه لأهل بيت النبوّة (ع) وارتباطٌ عاطفيٌّ منقطع النظير لا يمكن أن يفسّر إلّا بكونه وليد كنز أخفاه الأسلاف عن عامّة الناس في قلوبهم وأورثوه أبناءهم.

قال ابن أبي ضياف: وأهل إفريقيّة يدينون بحبّ عليّ وآله، يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم، جبلّة في طباعهم، حتّى أنّ نسوانهم عند طلق الولادة ينادون "يا محمد يا عليّ"، وكان الإمام الشاذلي[1] رضي الله عنه

---

(1) هو أبو الحسن الشاذلي مؤسّس الطريقة الشاذليّة وصاحب المقام المعروف بتونس، وفي ما أثر عنه عدّة أمارات على تشيّعه لا يسع المجال لذكرها.

يقول لأصحابه: إذا اشتدّ عليكم كرب فقولوا "يا محمد يا عليّ"[1].

بل حتّى لو نظرنا في سيرة علماء تونس فإنّنا نجد أنّ آثار التشيّع حاضرة فيهم:

فمن يقرأ لسان العرب للغويّ المعروف ابن منظور الإفريقيّ[2] يجد أمارات التشيّع بارزة بوضوح حتّى أنّ من ترجم له من العلماء نسبه للتشيّع، قال الذهبي: ومات القاضي المنشىء جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي بمصر، في شعبان عن اثنتين وثمانين سنة. يروي عن مرتضى، وابن المقير، ويوسف بن المخيلي، وابن الطفيل، وحدث بدمشق ومصر، واختصر تاريخ ابن عساكر، وله نظم ونثر، **وفيه شائبة تشيّع**[3].

بل نجد تشيّعا صريحا لا يقبل التأويل في بعض كلمات علماء التصوّف وأقطابه، فمثلا الفقيه والوليّ الصالح سيدي إبراهيم الرياحي[4] ينظم قصيدة كاملة في التوسّل بالنبيّ والأئمّة الاثني عشر الذين يعتقد بهم الإماميّة ويمدحهم بأعظم المدائح!

([1]) إتحاف أهل الزمان 154/1.

([2]) توفي سنة 711هـ

([3]) العبر 29/4.

([4]) توفي سنة 1266هـ

إلهي قد سألتك بالنبيّ وفرع الطهر بالحسن الوليّ

بمولانا الحسين ومن قد أضحى شهيدا من يد الشمر الشقيّ

بزين العابدين ومن تسمّى عليّا وهو ذو القدر العليّ

بمن بقر العلوم وكان فردا محمد الزكيّ بن الزكيّ

بصادقنا المسمّى في البرايا بجعفرنا أخ السرّ الجليّ

بموسى الكاظم الشهم الذي قد سما في الخلق بالخلق السنيّ

بمن في طوس قد أضحى دفينا أبي الحسن الملقّب بالرضي

بمن قد فاق في أدب وعلم محمد الملقّب بالتقيّ

بذاك السيّد الهادي عليّ حميد الفعل ذي العرض النقيّ

بمولى الفضل بالحسن المسمّى بسلطان الكرام العسكريّ

بخاتم أولياء الله جمعا بمهديّ الزمان الهاشميّ[1]

وهذه بضعة شواهد ذكرناها من باب التمثيل لا الاستقصاء وإلّا فإنّ هذا الموضوع يحتاج إلى مؤلّف مستقلّ.

إحياء الهويّة المضيّعة:

إنّ كثيرا من المهتمّين بالشأن الثقافي قد انتبه إلى أنّ قسما كبيرا من العادات والتقاليد المحليّة هي من آثار التشيّع السابق، ولذلك سعى الكثير إلى دراسة الأمر ومحاولة الإحاطة به من كلّ جوانبه ليصل إلى

([1]) سيدي إبراهيم الرياحي 227.

هذه النتيجة وهي أنّ كلّ المؤشرات والقرائن تكشف عن عمقه التاريخي الشيعي، وعن هويّة أريد لها الاندثار والضياع وفي المقابل فرضت على أسلافه هويّة أخرى!

ومن هنا وجدنا في العقود الأخيرة التي سهل فيها البحث والحصول على المعلومة التاريخيّة رجوع البعض إلى هويّة أسلافه الشيعيّة، بل تجاوز بعضهم ذلك إلى المطالبة بإحيائها وتجريم طمسها، وفي المقابل نجد فئة أخرى قد أثارت حفيظتها هذه الدعوات واعتبرتها "مدّا شيعيّا في تونس" وبالتالي أطلقت سلسلة من صيحات الفزع والتحذيرات من هذا المارد الخطير الذي يهدّد البلاد والعباد والحرث والنسل!

والحقّ الذي لا مرية فيه أنّ ما يحصل ليس مدّا شيعيّا قادما من خارج تونس، بل هو محاولة إعادة اكتشاف لهويّة ضيّعت بين صفحات التاريخ بل بين بريق السيوف الذي واجهه الأسلاف، فالذي يقرأ ما تقدّم من إبادات وقتل جماعيّ لن يتوانى على إطلاق مثل هذه الدعوات.

الواقع الشيعي المعاصر:

بناء على ما تقدّم نكون أمام واقع معاش لا يمكن تجاوزه وهو أنّنا أمام حالة شيعيّة في تونس نابعة من العمق التاريخي للتشيّع في المنطقة،

وليست وليدة التأثير الخارجي والعوامل الإقليميّة وإن كنّا لا ننفي أن يكون لها دور التنبيه ولفت النظر نحو حقائق تاريخيّة ودينيّة مغفول عنها.

والتعامل مع هذا الواقع بغير هذه المنطلقات هو هروب منه نحو الأمام، إذ لا يمكن حلّ هذا الملفّ بإلقاء التهم جزافا على التشيّع أو المتشيّعة أو استعمال أساليب "ابن باديس" الذي جعل الرؤى والمنامات دافعا لممارسة جرائمه وإقناع الناس بمشاركتهم فيها!

فالعالم اليوم يختلف عن العالم قبل 1000 سنة، وعقول الناس اليوم تستوعب ما لم يستطع استيعابه عامّة الناس في ذلك الزمن، فليس من السهل خداع الناس والتمويه عليهم وإخفاء الحقائق بجعل التشيّع في نظرهمماردا يريد الخروج من قمقمه ليأكلهم! إذ الكلّ يعلم أنّ التشيّع لا يعدو كونه مجرّد قراءة مختلفة عن القراءة السائدة للإسلام، بل هو القراءة الأصيلة لكونه يمثّل قراءة أهل البيت النبوي (ع) الذين هم الأقرب والأدرى بما في بيتهم.

قميص عثمان

نختم بأكثر تهمة يردّدها التيّار المعارض للوجود الشيعي ويعلّقون عليها كلّ رفض لهذا الأمر وهي قضيّة عدم الولاء للأوطان والارتباط السياسي بدولة إيران، فلا يذكر التشيّع اليوم إلّا وألصقوا به إيران ومشاريعها السياسيّة!

ويكفينا ذكر بعض الحقائق لدفع هذه التهمة الباطلة العاطلة:

أصالة التشيّع العربي:

إنّ أصل التشيّع وأسّه هم "العرب" لا الفرس، فقد بدأ التشيّع في المدينة المنوّرة عاصمة الإسلام بمجموعة من الصحابة الكرام كما قدّمنا في الفصول السابقة، ثم انتقل إلى الكوفة بانتقال الإمام علي بن أبي طالب (ع) إليها وبقي في المنطقة العربيّة طيلة قرون طويلة سواء، وحتّى الدول التي وسمت بأنّها شيعيّة هي دول عربيّة كان قادتها عربا أقحاح بل من البيت الهاشمي العلويّ كدولة الأدارسة ومن تشعّب عنهم والفاطميّون وغيرهم.

وفي المقابل كان الفرس طيلة هذا التاريخ من أهل السنّة والجماعة،

بل كانوا هم أركان هذا المذهب:

فأغلب الكتب الحديثيّة -التي هي قوام السنّة- أصحابها لم يكونوا من العرب بل كانوا من بلاد فارس:

- محمد بن إسماعيل "البخاري"
- مسلم بن الحجاج "النيسابوري"
- محمد بن عيسى "الترمذي"
- محمد بن يزيد ابن ماجة "القزويني"
- أبو داود سليمان بن الأشعث "السجستاني"
- أحمد بن شعيب بن علي "النسائي"

بالإضافة إلى المحدّثين ونقّاد الحديث والمفسّرين والمؤرّخين وشرّاح الحديث وكتّاب السيرة بل حتّى المتكلّمين والفقهاء وغيرهم...! وقد قالها ابن خلدون صريحة: من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة إلّا في القليل النّادر، وإن كان منهم العربيّ في نسبته فهو أعجميّ في لغته ومرباه ومشيخته مع أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربي[1].

وبالتالي نحن نتحدّث عن تشيّع عربيّ أصيل نشأ وترعرع في بيئة

([1]) تاريخ ابن خلدون 543/1.

عربيّة أصيلة ومنها انتشر في أرجاء الأرض، وعليه فالحديث عن فارسيّة التشيّع هو حديث خرافة لا قيمة له في الأوساط العلميّة التحقيقيّة.

العرب وتشيّع إيران:

الأمر الذي يجهله الكثير من الناس هو أنّ العرب هم الذين قاموا بإدخال التشيّع لإيران وليس كما تحاول بعض الأقلام "الأمينة" غرسه في أذهان الناس من أنّ إيران هي التي شيّعت العرب وحرفتهم عن التسنّن، فكلّ الشواهد والحقائق التاريخيّة تثبت عكس ذلك.

فلو رجعنا إلى كتب التاريخ لوجدنا أنّ الدخول الفعليّ للتشيّع إلى بلاد فارس كان في أوائل القرن الثامن للهجرة فترة حكم الملك خدابنده، وقد قرّر ابن كثير هذه الحقيقة في تاريخه حيث قال: وفيها أظهر ملك التترخربندا[1] الرفض في بلاده ، وأمر الخطباء أولا أن لا يذكروا في خطبتهم إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل بيته، ولما وصل خطيب بلاد الأزج إلى هذا الموضع من خطبته بكى بكاء شديدا

([1]) إنّ اسمه الحقيقي "خدابنده" بمعنى عبد الله، وقد تعمّد البعض تغييره إلى "خربنده" لكون "خر" باللغة الفارسيّة تعني حمار فيصبح معنى اسمه عبد الحمار، كما حرّفه بعضهم إلى "خرى بنده، والمعنى واضح لا يحتاج إلى بيان.

وبكى الناس معه ونزل ولم يتمكن من إتمام الخطبة، فأقيم من أتمها عنه وصلّى بالناس وظهر على الناس بتلك البلاد من أهل السنّة أهل البدعة فإنّا لله وإنّا إليه راجعون[1].

وسبب تشيّع هذا السلطان هو عالم من علماء الشيعة العرب الكبار وهو: جمال الدين الحسن بن يوسف ابن المطهّر المعروف بـ"العلّامة الحلّي" الذي استطاع بعلمه ونباهته أن يقنع هذا الخليفة بأحقيّة مذهب أهل البيت (ع) وبطلان ما سواه:

فقد نقل محمد تقي المجلسي قصّة هذا التحوّل حيث قال: كما أنّه[2]كان سبب إيمان سلطان محمد الجايتو رحمه الله، إنّه غضب على امرأته وقال لها أنت طالق ثلاثا ثمَّ ندم وجمع العلماء فقالوا: لا بدّ من المحلّل، فقال: عندكم في كل مسألة أقاويل مختلفة أفليس لكم هنا اختلاف؟ فقالوا: لا، وقال أحد وزرائه: إنّ عالما بالحلّة وهو يقول ببطلان هذا الطلاق، فبعث كتابه إلى العلّامة وأحضره، ولما بعث إليه قال علماء العامّة: إنّ له مذهبا باطلا ولا عقل للروافض ولا يليق بالملك أن يبعث إلى طلب رجل خفيف العقل، قال الملك: حتى يحضر،

([1]) البداية والنهاية 63/14.

([2]) المقصود هنا مسألة الطلاق بالثلاثة حيث أنّ مشهور الفقه السنّي أنّ الإنسان يمكنه أن يطلّق بالثلاث في المجلس الواحد بخلاف المذهب الشيعي الذي لا يوجد عنده مثل هذا الحكم.

فلمّا حضر العلامة بعث الملك إلى جميع علماء المذاهب الأربعة وجمعهم، فلما دخل العلامة أخذ نعليه بيده ودخل المجلس وقال: السلام عليكم، وجلس عند الملك، فقالوا للملك: ألم نقل لك إنّهم ضعفاء العقول؟ قال الملك: اسألوا عنه في كل ما فعل، فقالوا له : لم ما سجدت للملك وتركت الآداب؟ فقال إنّ رسول الله (ص) كان ملكا وكان يسلّم عليه، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ ولا خلاف بيننا وبينكم أنّه لا يجوز السجود لغير الله، قالوا له: لم جلست عند الملك؟ قال: لم يكن مكان، غيره وكل ما يقوله العلامة بالعربي كان يترجم المترجم للملك، قالوا له: لأيّ شيء أخذت نعلك معك وهذا مما لا يليق بعاقل بل إنسان؟ قال: خفت أن يسرقه الحنفيّة كما سرق أبو حنيفة نعل رسول الله (ص) فصاحت الحنفية: حاشا وكلّا متى كان أبو حنيفة في زمن رسول الله (ص) بل كان تولّده بعد المائة من وفاة رسول الله (ص)، فقال: فنسيت لعلّه كان السارق الشافعي، فصاحت الشافعية وقالوا: كان تولد الشافعي في يوم وفاة أبي حنيفة وكان أربع سنين في بطن أمه ولا يخرج رعاية لحرمة أبي حنيفة فلما مات خرج وكان نشؤه في المائتين من وفاة رسول الله (ص) فقال: لعله كان مالك، فقالت المالكية: بمثل ما قالته الحنفية، فقال: لعله كان أحمد

بن حنبل فقالوا بمثل ما قالته الشافعية، فتوجه العلامة إلى الملك فقال: أيها الملك علمت أن رؤساء المذاهب الأربعة لم يكن أحدهم في زمان رسول الله (ص) ولا في زمان الصحابة فهذا أحد بدعهم أنّهم اختاروا من مجتهديهم هذه الأربعة ولو كان منهم من كان أفضل منهم بمراتب لا يجوزون أن يجتهد بخلاف ما أفتاه واحد منهم، فقال الملك: ما كان واحد منهم في زمان رسول الله (ص) والصحابة؟ فقال الجميع: لا، فقال العلامة: ونحن معاشر الشيعة تابعون لأمير المؤمنين (ع) نفس رسول الله (ص) وأخيه وابن عمه ووصيه، وعلى أي حال فالطلاق الذي أوقعه الملك باطل لأنه لم يتحقق شروطه، ومنها العدلان، فهل قال الملك بمحضرهما؟ قال: لا، وشرع في البحث مع علماء العامة حتى ألزمهم جميعا، فتشيع الملك وبعث إلى البلاد والأقاليم حتى يخطبوا للأئمة الاثني عشر في الخطبة ويكتبوا أساميهم عليهم السلام في المساجد والمعابد[1].

ولم يكن تشيّع بلاد فارس بقوّة السلطان، بل كتب العلامة الحلّي كتابا يبيّن فيه مذهب أهل البيت (ع) وأمر خدابنده بنسخه ونشره في الآفاق وهو الكتاب الموسوم بـ"منهاج الكرامة في معرفة الإمامة"،

([1]) روضة المتقين 30/9.

والعجيب أنّ أعدى أعداء الشيعة قد اعترف بدور هذا الكتاب في التأثير على العجم وإدخالهم في التشيّع أفواجا!

فهذا "شيخ الإسلام" ابن تيميّة الحرّاني يصرّح أكثر من مرّة في كتابه "منهاج السنّة" -الذي كتبه ردّا على "منهاج الكرامة"- بخطورة ما خطّه يراع العلامة الحلّي وتأثيره على عامّة الناس، فقد ذكر في مقدّمة منهاجه أنّه طلب منه الردّ على الكتاب لأنّه من أعظم أسباب تشيّع الناس عندهم: وذكر من أحضر هذا الكتاب أنّه من أعظم الأسباب في تقرير مذاهبهم عند من مال إليهم من الملوك، وغيرهم، وقد صنّفه للملك المعروف الذي سماه فيه خدابنده، وطلبوا مني بيان ما في هذا الكتاب من الضلال، وباطل الخطاب، لما في ذلك من نصر عباد الله المؤمنين، وبيان بطلان أقوال المفترين الملحدين[1].

وذكر في مورد آخر سعة تأثير الشيعة في هذه الحقبة: ولما قاموا في دولة خدابنده الذي صنف له هذا الرافضي هذا الكتاب، فأرادوا إظهار مذهب الرافضة وإطفاء مذهب أهل السنة، وعقدوا ألوية الفتنة، وأطلقوا عنان البدعة، وأظهروا من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب

([1]) منهاج السنّة 7/1.

العباد[1].

واستمرّ الأمر على هذه الحالة إلى حين قيام الدولة الصفويّة الشيعيّة التي جعلت التشيّع هو المذهب الرسمي لبلاد فارس، علما أنّ الطبقة الأولى من علماء هذه الدولة أيضا كانوا من العرب لاسيما من جبل عامل أي لبنان اليوم، بدءا برأس هذه الدولة "علي بن الحسين العاملي" المعروف بالمحقّق الكركي مرورا بالشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي وابنه المعروف بالشيخ البهائي وغيرهم من علماء هذه الدولة.

فليس من الصحيح نسبة التشيّع إلى الفرس كما يسعى لذلك بعض الكتّاب المعاصرين، بل الحقّ هو أنّ العرب هم الذين غيّروا بلاد فارس وأدخلوا التشيّع فيها بعد أن كانوا سنّة بل كانوا أئمّة السنّة في التفسير والحديث والفقه والسيرة والتاريخ.

أسبقيّة التشيّع التونسي:

المفاجأة المهمّة في هذا الموضوع هو أنّ التشيّع قد دخل تونس قبل بلاد فارس بعدّة قرون، فقد تقدم في الفصول الأولى من الكتاب أنّ التشيّع بدأ مع البعثات الدينيّة التي أرسلها أهل البيت (ع) سنة 145

([1]) منهاج السنّة 165/4.

هـ، ثم أصبح حالة عامّة مع الدولة الإدريسيّة ومن بعدها الفاطميّة حتى قال ابن عذاري مؤرّخ المغرب: وكانت أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة، من وقت تملّك عبيد الله المهدي لها[1]؛ فتونس بحسب هذا النقل بلد شيعيّ بتمامه وكماله منذ سنة 290 للهجرة!

بل كانت تونس مركزا للشيعة وحوزة لهم، إذ أصبحت منطلقا لبعثات دعويّة كانت سببا في دخول التشيّع لباقي مناطق المغرب الأقصى، فهذا البكري المتوفّى سنة 487هـ يصرّح بأنّ نفطة كانت شيعيّة بأكملها وكانت تدعى بالكوفة الصغرى: هي مدينة مبنيّة بالصخر عامرة آهلة بها جامع ومساجد وحمّامات كثيرة، وهي كثيرة المياه السائحة، وشرب جميع بلاد قسطيلية بوزن إلّا نفطة فإنّ شربها جزاف، **وجميع أهلها شيعة وتسمّى الكوفة الصغرى**[2].

وهذا ابن حزم الأندلسي يحدّثنا عن سبب تسمية نفطة بـ"الكوفة الصغرى" حيث يقول: ومنهم طائفة تسمى النحلية، **نسبوا إلى الحسن بن علي بن ورصند النحلي، كان من أهل نفطة من عمل قفصة**

([1]) البيان المغرب 273/1.

([2]) المسالك والممالك 743/2.

وقسطيلية من كور إفريقية ثم نهض هذا الكافر إلى السوس في أقاصي بلاد المصامدة فأضلّهم وأضلّ أمير السوس أحمد بن إدريس بن يحي بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1].

بل يصرّح البكري بأنّ هذا الانتقال كان قبل دخول داعية الفاطميين لتونس أي قبل سنة 286هـ، قال: وهم كلّهم روافض ويعرفون بالبجليّين، **نزل بين ظهرانهم رجل بجليّ من أهل نفطة قسطيلية قبل دخول أبي عبد الله الشيعي إفريقية** يقال له محمّد بن ورسند[2].

فهذه النصوص تثبت أنّ تونس لم تكن مجرّد بلد شيعيّ بل كانت حاضرة للتشيّع ومركزا لانطلاق البعثات الدعويّة التي تجوب الأرجاء وتنشر مذهب أهل البيت (ع) في الآفاق، كلّ هذا والتشيّع لم يدخل بلاد فارس بعد بل كانت سنيّة بامتياز!

خطورة خلط الأوراق:

الأمر الآخر الذي يجب أن يعرفه الجميع هو عدم وجود أي تعاليم في المذهب الشيعي توجب اتباع الفرس أو موالاتهم، فلو رجعنا إلى أصول المذهب وفروعه وفتاوى علمائه على مرّ التاريخ فإنّنا لا نجد شيئا

(1) الفصل في الملل والنحل 183/4.

(2) المسالك والممالك 852/2.

من هذا القبيل على الإطلاق، فالموالاة التي ينصّ عليها هذا المذهب تكون لله ورسوله ولأهل البيت النبوي المتمثلين في الأئمّة الاثني عشر (ع) دون غيرهم.

أمّا الارتباط بالعلماء أو ما يعبّر عنه في أدبيات المذهب بـ"مراجع التقليد" فإنّه ارتباط فتوى في الأحكام العمليّة اليوميّة كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وليس ارتباط ولاء مطلق وطاعة عمياء، نظير ذلك ارتباط المسلم الذي يعيش في بلاد الغرب بالحواضر الإسلاميّة السنيّة كالزيتونة في تونس والأزهر في مصر وعلماء المملكة العربيّة السعوديّة، ولا يوجد من يقول أنّ مثل هذا الارتباط هو ولاء ينافي وطنيّة الإنسان.

علما أنّ مثل هذا الموضوع كان مطروحا في بدايات تأسيس الولايات المتحدة الأمريكيّة وهو: هل يمكن أن يكون الكاثوليكي المرتبط بالفاتيكان مواطنا أمريكيّا أم لا؟ وقد انتهى الأمر بحسم القضيّة وقبول مواطنته رغم هذا الارتباط! انتهى الجدل عندهم قبل قرون ولازلنا نحن اليوم نناقش عين القضيّة التي حسمتها الدول المتقدّمة وتجاوزتها بمراحل كبيرة.

المشكلة الحقيقيّة التي يمكن أن تطرح هي وجود من يوظّف المذهب لمشاريع سياسيّة تابعة لدول أجنبيّة، وهذا الأمر ليس مبرّرا لمنع كلّ المذهب وسلب أتباعه حقوقهم بل الصحيح هو معاقبة من يفعل هذا الشيء بحسب قانون الدولة لأنّه بهذه الصورة يخرج الأمر عن كونه ملفّا دينيّا إلى ملفّ سياسيّ وشتّان بين الأمرين.

فالغرب اليوم يعاني من توظيف الإسلام واستخدامه في تنفيذ اعتداءات عنيفة على مواطنيه، لكن لم نجد دولة غربيّة منعت الإسلام وحرّمت إقامة المساجد والمراكز الإسلاميّة، بل كانت ردّة فعلهم هو معاقبة الفاعلين والمحرّضين والداعمين دون الاقتراب من باقي المسلمين، ولو قام الغرب بمعاقبة الجميع وحرمانهم من ممارسة شعائرهم الدينيّة لاعترض عليهم كلّ المسلمين واعتبروا الأمر ظلما، فلماذا تختلف الموازين هنا؟

الخلاصة:

إنّ التشيّع لا يعدو كونه قراءة للإسلام تختلف عن القراءة السائدة التي ألفها البعض وتعوّد عليها، فليس التشيّع إلّا انتماء عقديا وفقهيا لأهل البيت (ع) الذين يعتبرون المرجع الأساسي لكلّ المعارف الدينيّة،

فالتشيّع النقيّ لا ينتمي لدولة ولا لجهة ولا لتيّار سياسيّ بل هو مجرّد علاقة بين الإنسان وربّه لا أكثر من ذلك.

صورة بانوراميّة

بعد هذه الرحلة الطويلة في أعماق تاريخ تونس والمغرب العربي يمكن أن نلخّص كلّ الكتاب في عدّة نقاط نجمع فيها أوّل الكتاب بآخره ونلخّص فيها الرسالة التي نريد وصولها للقارئ الكريم:

الأولى: تميّزت تونس على مرّ التاريخ بالتعدديّة الدينيّة والمذهبيّة فقد اجتمعت فيها الأديان السماويّة الثلاثة (الإسلام، النصرانيّة، اليهوديّة)، وكذلك تعاقبت عليها أغلب المذاهب الإسلاميّة (الشيعة، السنّة، المعتزلة، والخوارج) وحتّى في الإطار السنّي فقد سجّل وجود المذاهب الفقهيّة الثلاثة (المالكيّة، الحنفيّة، الشافعيّة)، وبالتالي فالحديث عن مالكيّة تونس لا يعني إقصاء باقي الأديان والمذاهب الأصيلة في البلاد بل لا يعدو كونه ذكر المذهب الذي استقرّ عليه غالبيّة السكّان لأسباب تاريخيّة تمّ الحديث عنها.

الثانية: لم يدخل الإسلام إلى تونس مع الفتوحات، فقد كانت مجرّد حروب توسعيّة الغرض منها المال والنساء، ولهذا جوبهت بقوّة من البربر السكان الأصليين لهذه البلاد فكانت لهم معارك وحروب مع العرب الذين صنّفوا كغزاة للأرض لا دعاة لدين.

الثالثة: البداية الحقيقيّة للإسلام كانت مع مجموعة من البعثات الدعويّة التي انطلقت من المشرق الإسلامي في بدايات القرن الثاني، وأهمّ بعثة على الإطلاق كانت بعثت سريّة من الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) الذي كان له الدور الأكبر في ترسيخ التشيّع في تونس وبلاد المغرب.

الرابعة: مع مرور الأيّام ترسّخ التشيّع في البلاد التونسيّة وأصبح هو المذهب السائد باعتراف المؤرّخين، بل تحوّلت تونس إلى مركز للتشيّع تنطلق منه البعثات الدعويّة إلى المناطق الأخرى كالمغرب الأقصى، وبناء على هذا تأسّيت عدّة دول شيعيّة على رأسها دولة الأدارسة ودولة الفاطميين.

الخامسة: بقي التشيّع حاضرا بقوّة في تونس إلى بدايات القرن الخامس للهجرة حيث جرت عدّة مذابح في هذه البلاد كان الغرض منها إبادة الشيعة وإنهاء وجودهم، وقد أسفرت هذه المذابح عن تغيير كبير في التركيبة السكانيّة، بالإضافة إلى تدخّل السلطان المباشر في ترسيخ المذهب المالكي.

السادسة: في العصر الحديث عاد كثير من الناس إلى التشيّع الذي كان عليه أجدادهم طيلة قرون، وأصبح هناك وجود شيعيّ معتدّ به في هذه البلاد

السابعة: إنّ التشيّع هو قراءة خاصّة للتاريخ والعقيدة والفقه فهو ليس مشروعا سياسيّا أو حركة ثوريّة، وكذلك ليس للتشيّع كمدرسة دينيّة أيّ ارتباط بأيّ دولة في العالم وبالتالي فإنّ الشيعة هم مواطنون صالحون في بلدانهم لهم ما لغيرهم وعليهم ما على غيرهم.

رسالة أخيرة

لم يكن الغرض من هذا الكتاب التنقيب في التاريخ واستحضار الماضي السحيق لإثارة العداوات وتأجيج الصراعات والنعرات، وإنّما هو مجرّد جمع لشواهد وقرائن تثبت أنّ التشيّع هو جزء لا يتجزّأ من النسيج الاجتماعي التونسي الأصيل، فهو ليس حركة دخيلة مستوردة من الشرق لتنفيذ أجندات مشبوهة كما توصم من بعضهم، بل هو عمق تاريخيّ لهذه البلاد لا يمكن تجاوزه وواقع لا يمكن إنكاره وغضّ الطرف عنه[1].

([1]) لعلّه قد اتضح للقارئ سبب تسميتي للكتاب "من البذرة إلى الثمرة"، فالبذرة هي النواة الأولى للتشيّع التي غرسها أهل البيت عليهم السلام وعلى رأسهم الإمام جعفر بن محمد الصادق، والثمرة هو استمرار التشيّع طيلة هذه القرون رغم المحن التي مرّ بها الشيعة.

مصادر الكتاب

القرآن الكريم.

(أ)

1- **الإبانة عن أصول الديانة**: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، دار الأنصار القاهرة مصر، تحقيق: د.فوقية حسين محمود، الطبعة الأولى1397هـ.

2- **اتّعاظ الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفاء**: تقي الدين أحمد بن علي بن قادر المقريزي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، تحقيق: د محمد حلمي، الطبعة الأولى.

3- **أخبار فخ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله**: أحمد بن سهل الرازي، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، تحقيق: د.ماهر جرّار، الطبعة الأولى 1995م.

4- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**: شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري.

5- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت لبنان، الطبعة الخامسة 1980م.

6- **افتتاح الدعوة**:القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2005م.

7- **أصول السنّة**: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار المنار السعوديّة، الطبعة الأولى 1411هـ.

8- **الإمامة والسياسة**: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مؤسسة الحلبي وشركائه للنشر والتوزيع، تحقيق: طه محمد زيني.

9- **أوائل المقالات**: الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري المفيد، دار الكتاب الإسلامي بيروت لبنان.

10- **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس**:أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، مكتبة الثقافة الدينية مصر، تحقيق:كارل بوحسن نورتبرغ، الطبعة الأولى 2014م.

(ب)

11- **البداية والنهاية**: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1408.

12-**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: محمد بن محمد المعروف بـ"ابن عذاري" المراكشي، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان، تحقيق: ج.س.كولان و إيلفي بروفنسال، الطبعة الأولى 2009م

(ت)

13- **تاريخ بغداد**: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ.

14- **تاريخ مدينة دمشق**: أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان 1996م.

15- **تاريخ ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون المغربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

16- **تاريخ الأمم والملوك**: محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان، الطبعة الخامسة 1989م.

17- **التراتيب الإداريّة (نظام الحكومة النبويّة)**: الشيخ عبد الحي الكتاني، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

18- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة المحمديّة بالمغرب، الطبعة الأولى.

(ج)

19- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن:**محمد بن جرير بن يزيد الطبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1995م.

(ح)

20- **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة:** المنسوب لكمال الدين عبد الرزاق بن أحمد المعروب بـ"ابن الفوطي"، دار الغرب الإسلامي، تحقيق: بشار عواد معروف، عماد عبد السلام رؤوف، الطبعة الأولى 1997م.

(د)

21- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور:** جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر بيروت لبنان.

22- **دلائل الإمامة:**أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الصغير- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان- الطبعة الثانية 1988.

23- **الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس بن**

إدريس:أحمد بن عبد الحي الحلبي، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان، تحقيق: محمد بوخنيفي، الطبعة الأولى 2017.

24- **دولة الإسلام في الأندلس**: محمد بن عبد الله عنان المصري، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الرابعة 1997م.

(ذ)

25- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**:أبو الحسن علي بن بسّام الشنتربيني، الدار العربيّة للكتاب ليبيا تونس، تحقيق: إحسان عبّاس.

(ر)

26- **رحلة التيجاني**: أبو محمد عبد الله بن محمد التيجاني، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1981م، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب.

27- **رسائل ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت لبنان، تحقيق: إحسان عبّاس، الطبعة الأولى.

28- **روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه**:الشيخ محمد تقي بن

ملا مقصود المجلسي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، منشورات دار المصطفى لإحياء التراث.

29- **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيّة**:أبو بكر محمد بن عبد الله المالكي، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، تحقيق بشير البكّوش، الطبعة الثانية 1994م.

(ز)

30- **الزينة**: أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي، منشورات الجمل بيروت لبنان، تحقيق: سعيد الغانمي، الطبعة الأولى 2015.

(س)

31- **سرّ السلسلة العلويّة**: أبو نصر سهل بن عبد الله بن داود البخاري، منشورات المطبعة الحيدريّة بالنجف الأشرف، تحقيق: السيد محمد صادق بحر العلوم، الطبعة الأولى: 1962م.

32- **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، الطبعة التاسعة 1993.

33- **سيدي إبراهيم الرياحي المنارة الزيتونيّة في الطريقة التيجانيّة**: أحمد السائح الحسني الشريف، KA Editions، تونس.

(ش)

34- **شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار**: القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي بقم المقدسة، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي.

35- **شرح العقيدة الطحاويّة**: علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الحنفي، وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والإرشاد، تحقيق: أحمد شاكر، طبعة سنة 1418هـ

(ص)

36- **الصراع المذهبي بإفريقيّة إلى قيام الدولة الزيريّة**:عبد العزيز المجدوب، دار سحنون للنشر والتوزيع/ دار ابن حزم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2008م.

37- **صورة الأرض**: محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، دار صادر بيروت لبنان، الطبعة الأولى.

(ط)

38- **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد بن منيع البغدادي، دار صادر

بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1968.
39- **طبقات علماء إفريقيّة**:محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي المعروف بـ"أبو العرب"، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان، الطبعة الأولى.

(ف)

40- **فتوح البلدان**: أحمد بن يحى بن جابر البلاذري، منشورات مؤسسة المعارف بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1987م.
41- **الفتوح**: أحمد بن أعثم الكوفي، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1991م.
42- **فتوح مصر والمغرب**: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري، مكتبة الثقافة الدينيّة، عام النشر: 1415هـ.
43- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي القاهرة.
44- **فقه السنة**: سيد سابق، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1977م.
45- **الفهرست**: شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، مؤسسة النشر

الإسلامي، قم إيران، الطبعة الأولى.

(ق)

46- **قصة الحضارة**:ويل جيمس ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين،دار الجيل بيروت لبنان.

(ك)

47- **الكافي**: محمد بن يعقوب الكليني، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية2010.

48- **الكامل في التاريخ**: عز الدين علي بن محمد ابن الأثير، دار صادر للطباعة والنشر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1965.

49- **كتاب البلدان**: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني المعروف بابن الفقيه، عالم الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، تحقيق: يوسف الهادي، الطبعة الثانية 2009م.

(ل)

50- **لسان العرب**: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، نشر أدب الحوزة، الطبعة الأولى 1405.

(م)

51- **المسالك والممالك**: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1992م.

52- **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بـ"الدبّاغ"، مطبعة السنّة المحمدية، الطبعة الثانية 1968م.

53- **معالم تاريخ المغرب والأندلس**: د. حسين مؤنس، دار الرشاد مصر القاهرة، الطبعة العاشرة 2008م.

54- **الملل والنحل**: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار السرور بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1948.

55- **معجم البلدان**: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1979م.

56- **مقاتل الطالبيّين**: أبو الفرج علي بن الحسين المرواني الأصفهاني، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إشراف كاظم المظفّر، الطبعة الأولى.

57- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين**: أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، المكتبة العصريّة صيدا بيروت، الطبعة الأولى.

58- **المجالس والمسايرات**: القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي، دار المنتظر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1996م، تحقيق: إبراهيم شبّوح، الحبيب الفقي، محمد اليعلاوي.

59- **مجموع الفتاوى**: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، مجمع الملك فهد المدينة المنوّرة، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة سنة 1995م.

60- **منهاج السنة النبوية**:تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني، دار الحديث القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2004.

61- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ.

(ن)

62- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: جمال الدين يوسف بن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

63- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**: محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي، عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1409هـ.
64- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والآثار**: محمد مقديش، دار الغرب الإسلامي دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1988م.
65- **نهاية الأرب في فنون الأدب**: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد التيمي البكري النويري، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، الطبعة الأولى 1423هـ.

(هـ)

66- **الهداية الكبرى**: أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان،الطبعة الرابعة 1991.

(و)

67- **وفايات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**:أبو العبّاس أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بـ"ابن خلّكان"، دار صادر بيروت لبنان، تحقيق: إحسان عباس.

فهرست المحتويات